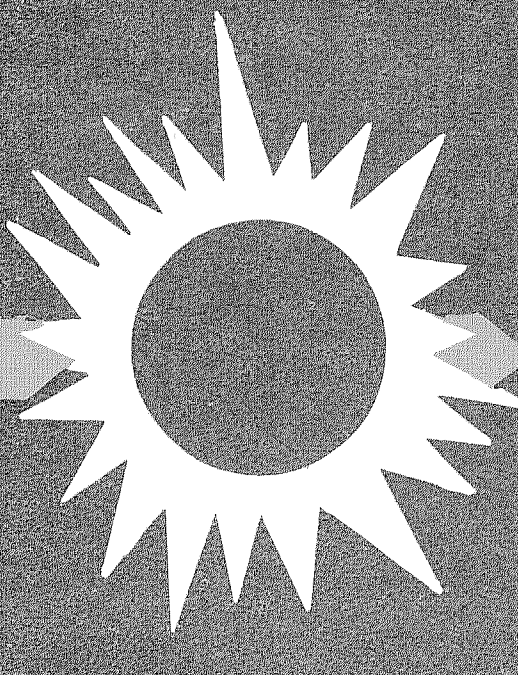
محمد فرج

الطريق إلى يثرب







الطريق إلى يثرب



محمد فرج

الطريق إلى يثرب



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - أنا خيرهم نسبا

فى الصحيح من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » .

وروى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذباً لاتتشعب شعبتان إلا كنت من خيرهما » .

وسأل هرقل إمبراطور الروم أبا سفيان عن نسب رسول الله فقال — والمعروف تاريخاً أن أبا سفيان كان شديد الخصومة عنيف العداوة لرسول الله — « إنه من أوسط قريش » والأوسط عند العرب هو الأعلى والأشرف ، وعلق هرقل على قول أبى سفيان بقوله : « هكذا يبعث الأنبياء من أشراف الناس » .

وعن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ إن الله حين خلقنى جعلنى من

خير خلقه ، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً » .

ورسول الله ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى ، ويتصل نسبه عليه السلام بسيدنا إسماعيل الابن البكر لسيدنا إبراهيم أبى الأنبياء من زوجه هاجر .

وكان سيدنا إبراهيم قد جاء بهاجر وابنها إسماعيل ، وهو مازال رضيعاً إلى واد قفر لاحياة فيه ، جديب لازرع فيه ، قاحل لاثمر ولاماء فيه ، وتركهما ثم انطلق عائداً وحده ، وهو يخاطب ربه : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

وكان إبراهيم عليه السلام مستجاب الدعوة عند ربه ، فعاش إسماعيل مع أمه فى هذا المكان القفر الذى تركها فيه ، والذى أصبح بفضل من الله تبارك وتعالى مجتمعاً زاخراً ، وحياة حافلة ، تصب فيه أنهار الحياة المتدفقة بالنعم من كل أفق .

وأقبلت على المكان قبيلتان من قبائل اليمن هما جرهم وقاطوراء ، وهم أبناء عم وشاركوا إسماعيل وأمه الحياة فى هذا الموضع . . وتزوج إسماعيل إحدى بنات جرهم واسمها رَعَلة بنتُ مُضَاض بن عمرو ، وولد له منها اثنا عشر رجلا .

تولت جرهم أمر تنظيم المجتمع الجديد ، إلا أن نزاعاً وقع بين القبيلتين

بسبب تنافسها على الملك بمكة فاقتتلا قتالا شديداً ، جرهم يقودها مضاض ، وقاطوراء يقودها السميدع ، وانتصرت جرهم وقُتل السميدع ، وأصبح الأمر لها فزادت سطوتها وانتشر نفوذها ، وقوى سلطانها ، إلا أنهم بغوا بمكة واستحلوا الحرمات ، وأباحوا المنكرات ، وظلموا من يدخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدى إليها ، واستهانوا بأمر الكعبة حتى إنهم كانوا يمارسون الزنا فى داخلها .

وكانت قبيلة خزاعة قد وردت المكان وعاشت فيه ، فأغضبها سلوك جرهم فعزمت على حربهم وإخراجهم من مكة ، وآذنوهم بالقتال فاقتتلوا ، وكانت الغلبة لخزاعة فأخرجتهم من مكة ، وقيل إن السماء تدخلت إلى جانبهم ، فسلط الله على جرهم الرعاف ، فأفنى غالبهم ، وفرّ الباقون بأنفسهم إلى اليمن .

وتولت خزاعة أمر مكة والبيت ، وكان كبيرهم عمرو بن لحى الذى ذهب شرفه فى العرب كل مذهب ، حتى صار قوله ديناً متبعاً لايخالف ، وقد بلغ من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولابعده فى الجاهلية ، وكان لايبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة ، وكانت له بصمات على المجتمع المكى ، فهو أول من أطعم الحجيج سدائف الإبل (جمع سديف وهو شحم السنام) ولحمها على الثريد ، ويروى أنه كان ينحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، ويكسو عشرة آلاف حلة ، وهو أول من أحلّ أكل الميتة ، فقد كانت القبائل من ولد إسماعيل تحرم أكل الميتة حتى زعم عمرو أن الله تعالى لايرضى تحريم أكل الميتة ، وقال : « كيف لاتأكلون ماقتل الله وتأكلون ماقتلتم ؟ » ، وقد روى البخارى أن رسول الله قال : رأيته (يعنى عمرو) يؤذى أهل النار بريح قصبه (أى أمعائه) ، وهو

أول من غير دين إبراهيم ، فقد استمر العرب منذ عهد إبراهيم على دينه إلى زمن عمرو فشرع الضلالات ، وسيب السائبة ، وبحر البحيرة ووصل الوصيلة[1] ، وقال عنه رسول الله إنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وكان عمرو قد خرج إلى الشام ، فرأى بأرض البلقاء العماليق يعبدون الأصنام فسألهم : ماهذه ؟ قالوا : « هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا » ، فسألهم أن يعطوه صنما فأعطوه صنماً يقال له هبل ، فقد به مكة وأقامه فى بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، وانتشرت على أثر ذلك عبادة الأصنام ، وهو أول من أدخل الشرك فى التلبية .

وظلت ولاية البيت لأبنائه من بعده ، وكان آخرهم حليل بن أبى حبشية بن سلول ، وفى عهده وصل مكة قصى بن كلاب الجد الرابع لرسول الله . . وصلها من بلاد الشام حيث عاش الفترة الأولى من حياته ، فقد رحلت به أمه بعد موت أبيه إلى الشام مع زوجها ربيعة بن خزام ، فلما كبر وقع بينه وبين آل زوج أمه شر ، فعيروه بالغربة ، وقالوا له : « ألا تلحق بقومك وببلادك فإنك لست منا » ، وعرف من أمه حقيقة أصله ، قالت له : « بلادك خير من بلادهم ، وقومك خير من قومهم ، أنت أكرم أباً منهم ، أنت ابن كلاب بن مرةّ ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، تفد إليه العرب ، وقد قالت لى كاهنة

(١) كان العرب إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا عن ركوبها وسميت البحيرة ، وإذا أنتجت عشرة أبطن إناث تهمل ولاتركب ولايشرب لبنها وسميت السائبة ، أما الوصيلة فهى الشاة التى تنتج سبعة أبطن فإن كان السابع أنثى لاينتفع فيها النساء بشىء إلا أن نحرت فيأكلها الرجال والنساء وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فتترك معه وينتفع بها الرجال دون النساء فإن نحرت اشتركوا فيها .

رأتك صغيراً إنك تلى أمراً جليلاً » .

واشتاق قصيّ إلى أهله وبلده ، فخرج مع حجاج قضاعة وقدم مكة ، فعرف أهله له فضله وشرفه ، وأكرموه وقدموه ، وأعجب به حليل وبرجولته وخلقه فأحبه وأنزله من نفسه منزلة ولده ، وزوجه ابنته حُبّى ، فكان له منها أولاد هم عبد الدار وعبد العزى وعبد مناف ، وكثر ماله ، فلما قرب أجل حليل أوصى بأمر البيت إلى قصى .

وكان قصى يرى أن قريشاً وبنى كنانة أقرب إلى إسماعيل من خزاعة ، فدعاهم لإخراج خزاعة من مكة ، فانضموا إليه وأجابوه ، وانضم إليه أيضاً أخوه رزاح بن ربيعة ومن تبعه من قومه من قضاعة ، وحاربهم وانتصر عليهم وأخرجهم من مكة ، وأصبح الأمر كله له ، وأصبحت شئون مكة ملك يديه ، فكان بيده السقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة الحجابة ، وعاشت مكة فترة زاهية تحت حكمه ، فقد جمع قريشاً بعد تفرقها فى البلاد وجعلها اثنتى عشرة قبيلة[1] ، وأمرهم بأن يبنوا بيوتهم داخل الحرم وحول البيت « إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم » ، وأنشأ دار الندوة وكانت أول دار بنيت بمكة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، فكانت نادياً لهم ولقومه ، وكانوا يجتمعون بها للمشاورة فى أمورهم وأحوالهم ، وخاصة أمور الحرب والسلم والزواج والطلاق والصلح والخصام ، وكانوا يقيمون بها الولائم ويبرمون العقود ، وكان يعقد بها لواء الحرب ، وكان لاينكح رجل امرأة من قريش إلا فيها .

---

(١) كانت قريش قد تفرقت فى الشعاب فجمعها وسمى مجمع .

وكان قصى يتولى إطعام الحجاج ، ودعا قريشاً أن تخرج فى كل موسم من أموالها مايكفى لإطعام الحجاج . . قال لهم : « يامعشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، قد خصكم الله بذلك وأكرمكم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم » ، وحرّم قصى الخمر ودعا القوم إلى اجتنابها وقال لهم : « إنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان » . ومات قصى وبموته تفرقّ أمر قريش .

شرف فى زمن قصيّ وفى حياته ابنه عبد مناف الجد الثالث لرسول الله ﷺ ، وكان اسمه أصلا المغيرة ، وكان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله ومناف أصله مناة ، وهو اسم صنم كان أعظم أصنام الكعبة ، وجعلته أمه خادماً للصنم فنسب إليه وسمى عبد مناف ، وروى عنه أنه قال : « أنا المغيرة بن قصى أوصى قريشاً بتقوى الله جل وعلا ، وصلة الرحم » .

وعندما كبر قصى ورق عظمه جعل لابنه عبد الدار كل ما كان بيده من أمر قومه ، وكان لايُخالف أبداً ، وصار لعبد الدار الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ودار الندوة .

فلما قضى عبد مناف وعبد الدار ، أجمع بنو عبد مناف (عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل) على أن يأخذوا مابأيدى بنى عبد الدار ، اقتناعاً منهم بأنهم أولى بذلك لشرفهم عليهم وفضلهم ، وتفرقت بذلك قريش ، فانضم البعض إلى بنى عبد الدار حتى لاينزع منهم ماكان قصى قد جعله لهم ، وانضم البعض الآخر إلى بنى عبد مناف لأنهم يرون أنهم أحق من بنى عبد الدار ،

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً أخرجتها لهم أم حكيم بنت عبد المطلب عمة النبي وقالت : « من تطيب بهذا فهو منا » ، وغمسوا أيديهم فيها ومعهم حلفاؤهم ومسحوا الكعبة بأيديهم وتعاهدوا فسموا « المطيبين » ، وفى ذات الوقت تعاقد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة على ألا يتخاذلوا ولايسلم بعضهم بعضاً ، وأخرجوا هم أيضاً جفنة مملوءة بالدم وقالوا : « من أدخل يده فى دمها فلعق منه فهو منا » ، وسموا : « لعقة الدم » وانتهى الخلاف بينهم بأن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبد مناف ، وأن تكون الحجابة واللواء لبنى عبد الدار ، وأن تكون دار الندوة مشتركة بينهم ، وتحالفوا على ذلك .

وتولى أمور بنى عبد مناف ابنه هاشم وهو عمرو العلا وسمى كذلك لعلو مرتبته وكان أخاً توأماً لعبد شمس ، وعند ولادتهما كانت رجل هاشم ملصقة بجبهة عبد شمس ، وعند نزعها منه سال الدم ، وفسر الكثيرون وقتها سيلان الدم بأنه سيكون بين الأخوين دم ، ووقعت فعلا بينهما العداوة التى اتصلت فيما بعد بأولادهما .

ساد هاشم قومه بعد أبيه عبد مناف وأغضب ذلك أمية بن عبد شمس فدعا عمه للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره ، فلما رأى منه تصميماً على ذلك وافق بشرط وقال له : « أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة والجلاء عن مكة عشر سنين » ، فرضى أمية بهذا الشرط ، وجعلا بينهما كاهناً من خزاعة فلما نزلوا عليه ، قال لهم قبل أن يخبروه خبرهم : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر والغمام الماطر ، ومابالجو من طائر ، وماهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر » وهكذا نصر الكاهن هاشماً على

أمية الذى خرج إلى الشام حيث أقام بها عشر سنين ، على حين نحر هاشم الإبل وأطعم الناس .

وهاشم من أكابر رجال قريش وساداتهم وحكامهم ، استقرت له الرئاسة وصارت قريش له تابعة تنقاد لأوامره وتعمل برأيه ، ومن أهم مادعا إليه قومه ما جاء فى قوله لهم : « نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق العشيرة وقطع رحم . . أيها الناس الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غُيَّر (متقلب) ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله فاصطبغوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة . .

وأصاب الناس سنة جدب شديد ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكعكاً ، وقدم به ، فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريداً ، وأطعم الناس حتى أشبعهم ، فسمى بذلك هاشماً ، وقال عنه بعضهم : « لم تزل مائدته منصوبة لاترفع فى السّراء والضرّاء » .

وكان هاشم قد تزوج من بنى النجار ، وكانت زوجته وهى سلمى بنت عمرو بن زيد لاتنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فإن كرهت رجلا فارقته ، وكانت لاتلد ولداً إلا فى أهلها ، وقبل هاشم ذلك

وصحبها معه إلى مكة ، فلما أثقلت بالحمل تركها عند أهلها فى المدينة لتضع حملها ، ومضى هو فى رحلة إلى الشام ، فمات بغزة ، وولدت زوجه ابنه شيبة الحمد ، الذى عرف فيما بعد باسم عبد المطلب ، وظل بالمدينة سبع سنين ، وروى أن رجلا شاهده مع غلمان يلعبون بالسهام وسمعه يقول : « أنا ابن سيد البطحاء » ، فسأله : « ممن أنت ياغلام ؟ » ، فقال : « أنا شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف » ، فلما قدم الرجل مكة قصّ على عمه المطلب الأمر ، فرحل على الفور إلى المدينة ، فلما رآه عرفه ، وقال له : « أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك » ، ثم حمله على ناقته وانطلق به إلى مكة ، فلما قدمها قالت قريش : « هذا عبد المطلب » ، فعرف بهذا الاسم . . وقيل فى سبب تسميته شيبة الحمد لكثرة حمد الناس له ، لأنه كان ملجأ قريش فى الأمور ومفزعها فى النوائب ، وكان سيدها شرفاً وكمالا وفعالا ، وقيل إنه سمى بهذا الاسم لأنه ولد وفى رأسه شيبة ، وقيل لأن وسط رأسه كان أبيض ، وقيل إنه سمى بذلك تفاؤلا بأنه سيبلغ سن الشيب .

ومن أهم ماتميز به عبد المطلب أنه حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وأنه كان مجاب الدعوة ، وعرف بأنه الفياض لجوده وكرمه ، وكان يقال له : « مطعم الطير » لأنه كان يطعم الطير والوحوش فى رءوس الجبال . . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الدنيا . . رفض عبادة الأصنام ، ووحد الله سبحانه وتعالى ، وكانت له آراء وردت فى القرآن الكريم منها الوفاء بالنذر ، ومنع نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزنا ، وهو أول من سنّ

رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والحبشة وإلى الشام . . وأثر عنه قوله : « لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه ، وإن وراء هذه الدار داراً أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء بإساءاته » .

ولقد سقّ الله الناس بعبد المطلب وفى هذا قال الشاعر :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد عدمنا الحيا واجلوذ[1] المطر

---

(١) اجلوذ : أى تأخر زمنه .

٢ – ابن سيد البطحاء

ذكرت كتب السيرة أن عبد المطلب عاش مائة وأربعين سنة ، وقد حفلت حياته بأحداث عظام عاشتها قريش ، وكان له فى كل حدث موقف يؤكد شرفه ومنزلته وعلو مكانته وكماله ، وكانت هذه الأحداث ذات شأن كبير فى أحوال المجتمع المكى ، كما كانت كلها تشير إلى قرب مولد رسول الله ﷺ ، فقد تحدث به الكهان والأحبار والراسخون فى العلم ، واتفقوا جميعاً على أن زمان النبى المنتظر قد قرب ، وأن أوانه أصبح وشيكاً .

ويأتى حفر زمزم فى مقدمة هذه الأحداث .

فما إن تولى عبد المطلب السقاية ، حتى بات يفكر ى وسيلة سهلة ييسر بها للحاج سبيل الماء ، بلا عنت ولاجهد ولامشقة ، وكان قد سمع عن بئر زمزم التى تفجرت مياهها على زمن جده إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ثم طمستها جرهم وأخفت معالمها ، حين اضطرت إلى النزوح من مكة ، وصار مكان زمزم مطويًّا لايعرف شىء عنه ، يتناقل الناس أحاديثها ولايعرفون مكانها ، وبات عبد المطلب يفكر فى أمر هذه البئر التى نضب ماؤها ، محاولا أن يكشف مكانه ليستعين بمياهه فى سقاية الحاج .

وخلال أربع ليال متتالية رأى فى منامه هاتفاً يأمره بحفر زمزم . . وجاءه

الهاتف فى الليلة الأولى وقال له : « احفر طيبة » ، فسأله عبد المطلب : « وماطيبة ؟ » فانصرف عنه الهاتف ، ثم جاءه فى الليلة الثانية ، وقال له : « احفر برَّة » فسأله « ومابرَّة ؟ » ، فانصرف عنه ، ثم جاءه فى الليلة الثالثة ، وقال له : « احفر المضنونة » ، فسأله : « وما المضنونة ؟ » ، فانصرف عنه ، ثم جاءه فى الليلة الرابعة ، وقال له : « احفر زمزم » ، فسأله : « ومازمزم ؟ » ، فقال : « لاتُنْزف أبداً ، ولاتذم (لاتفرغ من الماء) ، تسق الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم (مايتخلف من كروش الذبائح) ، عند نقرة الغراب الأعصم (قيل أحمر المنقار والرجلين وقيل أبيض البطن وقيل أبيض الجناحين) » ، واتجه عبد المطلب إلى الكعبة حيث رأى الغراب الأعصم ينبش برجليه وينقر بمنقاره فى المكان الذى يذبح فيه مايهدى إلى البيت ، فلما تبين له المكان أتى بمعوله وبدأ الحفر ، ومعه ابنه الوحيد الحارث ، يعاونه فيحمل التراب بعيداً ، وكان عبد المطلب يرتجز وهو يحفر.

لاهم قد لبيت من دعانى وجئت سعى المسرع العجْلان
ثَبْتَ اليقين صادق الإيمان يتبعنى الحارث غير وان
جذلان لم يحفل بمايعانى لاهم فلتصدق لنا الأمانى

ولما أدركت قريش أن عبد المطلب سينال وحده هذا الشرف العظيم ، سارت إليه تمنعه من الحفر « والله لانتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما » ، إلا أنه كان مصمماً على أن يُتم ماأمر به فقال : « والله لأمضين لما أمرت به » ، فلما أدركوا تصميمه وعزمه على المضى فيما بدأه ، خلّوا بينه وبين

الحفر ، ونجح عبد المطلب وكشف عن البئر ، وأصاب حاجته ، فصاح : « هذا طَوِىّ إسماعيل . . هذه بئر زمزم . . هذه سقاية الحاج » ، وعزّ على قريش أن يكون له وحده البئر فقالوا له : « إنها لبئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقًّا ، فأشركنا معك » ، فرفض : « ماأنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم » ، واحتكم الطرفان إلى كاهنة بنى سعد هُذَيم ، وخرج بعض القوم قاصدين الكاهنة ، وكانت فى موضع مابين الحجاز والشام ، فلما قاربوا حدود الشام نفذ ماكان معهم من الماء فى منطقة لاماء فيها ، وكان القيظ شديداً والحر بالغاً ، فظمئوا حتى أيقنوا الهلكة ، وتوقعوا الموت ، ولكن عبد المطلب لم ييئس وقال : « والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا إلى الموت لعجز ، فلنضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ، فانطلقوا » وركب راحلته فلما همت به قائمة ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فنزل وشرب ، وشرب أصحابه (كان قد خرج معه نفر من بنى عبد مناف) ، ودعا الخارجين من قريش (وكان قد خرج نفر من قريش من كل بطونها) « هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا » ، فشربوا واستقوا ، ثم لاموا أنفسهم لموقفهم من عبد المطلب وقالوا له : « والله لانخاصمك فى زمزم أبداً ، إن الذى سقاك الماء بهذه الفلاة ، لهو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً » .

ويرتبط هذا الحدث العظيم بحدث آخر له أهميته وخطره ، فإن عبد المطلب حين اعترضت قريش على حفره بحثاً عن زمزم ، لم يكن لديه من الولد سوى الحارث فقط ، وكان من الطبيعى ألا يملك هو وابنه القدرة على الدفاع عن نفسه إزاء هذه الجموع الغفيرة من قريش ، ولهذا نذر إن رزقه الله عشرة من

الأولاد الذكور يمنعونه ، ليذبحن أحدهم عند الكعبة « لله علىّ النذر ، لئن أتانى الله عشرة من الأولاد الذكور ، لأنحرن أحدهم عند الكعبة » ، وفى رواية « أن أجعل أحدهم لله نحيرة » .

ووهب الله عبد المطلب ماأرضى نازع الكثرة فى نفسه ، ووفاء للنذر جمع أولاده وأخبرهم بنذره ، فما اختلف عليه منهم أحد وقالوا : « أوف بنذرك وافعل ماشئت ، الأمر لك ونحن بين يديك » ، وضرب عبد المطلب بالأقداح ، فخرج قدح عبد الله ، وكان أحب بنيه إليه كما كان اسمه أحب الأسماء إلى الله تبارك وتعالى : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ، وقاد عبد المطلب ابنه إلى المذبح ليوفى بنذره ويذبحه .

ولنا هنا وقفة .

فإن رسول الله ﷺ قال : « أنا ابن الذبيحين » ، ورسول الله يعنى بذلك أباه عبد الله وجده إسماعيل بن إبراهيم أبى الأنبياء ، فإن إبراهيم كان قد رأى فى منامه أنه يذبح ابنه قرباناً لله ، والمنامات عند الصالحين من عباد الله بمثابة وحى وأمر مباشر ، فصدع للأمر الصادر إليه فى المنام وعرضه على ابنه إسماعيل : (قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) ، فتقبل إسماعيل القضاء بالرضا وقال : (ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ، فلما همّ إبراهيم بذبحه ناداه ربه بالكف فقد صدقت الرؤيا ، ورأى إبراهيم بالقرب منهما كبشاً كبيراً فذبحه فدية عن ولده (فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن ياإبراهيم.قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إنّ هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم) .

نعود بعد ذلك إلى قصة ذبح عبد الله .

كان لعبد الله بين أهل مكة معزة ومحبة ومكانة لما كان يتميز به من خلق وديع وعقل رزين ولسان عذب ، ولما كان يتمتع به من نقاء النفس وعفة الروح وسمو الوجدان والمشاعر ، فلما قاده أبوه إلى المذبح اجتمع القوم من قريش يحولون بينه وبين أبيه : « ياعبد المطلب ، إنك بهذا تريد أن تسن فينا سنة سيئة ، لقد علمت أنك شيخنا ورئيسنا ، فلو مضيت تذبح ولدك اليوم ، فإنه سيتبعك رجال من قومك ، فيذبحون أبناءهم تأسيساً بك واقتداء لسنتك ، فنصبح وقد غدا الذبح فى أبنائنا سنة متبعة » ، وطالبوه بالعدول عن قراره : « بالله عليك ياعبد المطلب إلا عدلت عن هذا الرأى ، فإن فيه فناءنا وذهاب قوتنا ، فإن كان لابد لك من الوفاء بنذرك ، فلنحتكم نحن وأنت إلى عرافة يثرب ، فما حكمت به فهو الحكم بيننا وبينك » .

ولما سمع بنو مخزوم بالأمر – وهم أخوال عبد الله – قالوا لعبد المطلب : « ياأبا الحارث ، إنا لانسلم ابن أختنا للذبح ، كلا لايكون ذلك أبداً ، وفينا روح ، وإنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد » ، وأنشد المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم :

ياعجباً من فعل عبد المطلب وذبحه ابناً كتمثال الذهب

كلا وبيت الله مستور الحجب ماذبح عبد الله فينا باللعب

فدون مايبغى خطوب تضطرب

وقبل عبد المطلب أن يحتكم إلى عرافة يثرب التى سألتهم : « كم دية الرجل

عندكم ؟ » فقالوا : « عشرة من الإبل » ، فأشارت عليهم : « ارجعوا إلى بلدكم ، وقدموا هذا الغلام الذى عزمتم على ذبحه ، وقدموا معه عشرة من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعلى الإبل القداح ، فإن خرج القدح على الإبل فانحروها ، وإن خرج على صاحبكم فزيدوا على الإبل عشرة حتى يرضى ربكم » ، وضرب عبد المطلب القداح فخرجت على عبد الله ، فمازال يزيد عشرة حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح على الإبل ، فقالت له قريش : « قد انتهى رضا ربك » ، ولكنه أبى إلا أن يعيد الضرب ثلاث مرات ، فخرجت القداح على الإبل فى المرات الثلاث ، فنحرت ، ثم تُركت لايُصد عنها إنسان ولايُمنع طير أو حيوان أو وحش .

وانصرف عبد المطلب مغتبطاً فرحاً بابنه ، ورأى أن يستكمل هذه الفرحة ، فقرر أن يزوجه من آمنة بنت وهب ، وهى سيدة عقائل العرب ، وجاء فى السيرة الحلبية أن عبد المطلب نزل وهو فى رحلة تجارة إلى بلاد اليمن على جد من اليهود ، فلما عرف الجد أنه من بنى هاشم نظر فى يديه ثم قال له : « أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة ، وإنما تجد ذلك فى بنى زهرة » ، ونصحه إن أراد الزواج أن يتزوج من بنى زهرة . . وروى أن سودة بنت زهرة ابن كلاب كاهنة قريش قالت يوماً لبنى زهرة : « إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً ، فاعرضوا علىّ بناتكم » ، فلما عُرضت عليها آمنة قالت : « هذه النذيرة أو ستلد نذيراً » ، خطب عبد المطلب – آمنة لعبد الله وزوجها له ، فأقام معها فى بيت أهلها ثلاثة أيام على عادة العرب ، ثم انتقل وإياها إلى منازل أهله ، ولم يقم معها طويلا ، إذ خرج فى تجارة إلى الشام وكان قد تركها حاملا ، وقضى فى

رحلته أشهراً ، وفى عودته مرض فتخلف عند أخواله بنى عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً ، ولما علم أبوه بعث بابنه الحارث ليعود به ، ولكنه كان قد مات .

مات عبد الله وزوجه آمنة حامل . . ورأت فيما يرى النائم من يهتف بها « إنك قد حملت بسيد هذا الأمة فإذا وقع إلى الأرض فقولى أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً » ، ورأت أيضاً فيما يرى النائم كأن نوراً قد خرج منها ، فأضاء مابين المشرق والمغرب ، ورأت على ضوئه قصور بصرى بالشام .

وفى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ولد رسول الله .

ولد سيد الأمة فى عام الفيل .

وعام الفيل هو العام الذى تحرك فيه أبرهة الأشرم ليهدم بيت الله .

وحادث الفيل من أحداث مكة التى عاصرت عبد المطلب وكان له فيها موقف رجولة .

كان أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قبل نجاشى الحبشة ، قد بنى بصنعاء كنيسة فخمة ضخمة هى القليس ، وأراد أن يحول إليها أنظار العرب بدلا من بيت الله فى مكة ، وكتب بذلك إلى النجاشى فقال : « إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب » .

ظل العرب على اتجاههم إلى بيت الله فى مكة ، واحتقروا . القليس ، وزادوا فى تحقيرها فكانوا يدنسونها متعمدين ، وانصرفوا عنها تماماً ، ورفضوا

الإذعان لأوامر أبرهة ، فأغضبه موقف الناس ، ورأى أن يسير بجيش ضخم إلى مكة ليهدم بيت الله فيها .

وخرج الجيش ومعه الفيلة يتقدمها الفيل الأعظم الذى بعث به النجاشى إلى أبرهة واسمه محمود ، وهزم فى طريقه كل من تعرض له من العرب واعترض طريقه (نفر من اليمن بقيادة ذى نفر ، ونفر من خثعم وشهران وناهس بقيادة نفيل بن حبيب ، ونفر من ثقيف بقيادة مسعود بن معتب) ، حتى بلغ مشارف مكة فبعث رجلا يدعى الأسود بن مقصود إلى مكة فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب ، ثم بعث رسولا يدعى حناطة الحميرى إلى عبد المطلب يقول له « إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت » ، فقال له عبد المطلب : « والله مانريد حربه ، ولا لنا بذلك طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ، فإن لم يمنعه فهو بيته وحرمه » .

والتقى عبد المطلب بأبرهة الذى أجله وأكرمه وسأله حاجته ، فطلب عبد المطلب أن يرد إليه إبله فقال له : « قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتك ، أتكلمنى عن مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لأهدمه لاتكلمنى فيه » ، فقال عبد المطلب : « أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه » ، فرد أبرهة عليه إبله ، فعاد عبد المطلب إلى مكة ، وأخبر القوم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز بالجبال والشعاب ، ثم توجه إلى الكعبة ودعا ربه واستنصره على أبرهة وجيشه .

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك

إن يدخلوا البلد الحرام غداً فأمر مابدا لك

وتهيأ أبرهة لدخول مكة ، فإذا بالفيلة تبرك كلما وجُهت إلى ناحية مكة ، أما إذا وجهت وجهة أخرى قامت مهرولة مسرعة ، قال ابن إسحق : « فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حيث قام إلى جانب الفيل ، ثم أخذ أذنه فقال : ابرك محمود أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام ، ثم ترك أذنه ، فبرك الفيل »

ثم تدخلت السماء .

وأرسل الله عليهم جماعات من الطير ترميهم بحجارة صغيرة لاتصيب أحداً إلا هلك ، وعاد الجيش هارباً دون أن يبلغ مأربه ، وحفظ الله البيت العتيق ، وأنزل نقمته على أعداء حرمه وبيته ، فكانوا يتساقطون وهم فى طريق العودة ، وأصيب أبرهة فى جسده ، ومإإن وصل صنعاء حتى مات .

وهكذا فشل أبرهة بكل جيشه وفيله وجبروته فى الوصول إلى بيت الله ، ذلك أن الله تعالى هو صاحب هذا البيت ، أوجده لحكمة تتصل بالحياة والبشر ، ولايمكن أن يتركه لينال منه بشر أو تصيبه قوة مهما بلغت بمكروه .

بيت الله اختاره الله لنفسه وجعله كعبة للناس يحجون إليه من كل فجاج الأرض ، فقد أوصى الله تعالى إلى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج إليه « إنما عليك الأذان وعلينا البلاغ » ، وأقبل الناس على البيت طائعين يلبون النداء ، ويقبلون بقلوب خاشعة ، وعيون دامعة ، يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، يغسلون ذنوبهم ، ويمحون سيئاتهم ، ويعودون أطهارا أبراراً كما ولدتهم أمهاتهم .

بيت الله أوجده الله تبارك وتعالى قبل الخلق . فأصبح مهوى الأفئدة ، وقبلة الأنظار ، وتهافتت القبائل على الإقامة حوله ، وتسابق الناس إلى سكنى جواره وفى رحابه ، وصار خدام هذا البيت أكثر الناس مقاماً وأعزهم شأناً وأرفعهم منزلة .

بيت الله هذا جاءه أبرهة ليهدمه وكما قال عبد المطلب : « إن للبيت ربًّا يحميه » ، فقد صدّ الله عن البيت الضر والهدم ، حين أريد به الضر والهدم ، وكان أن حفظ الله بيته وأنزل نقمته على أعداء حرمه ، فعرف العرب لقريش مكانتها ، فقالوا إنهم أهل الله وجيران بيته ، ومن ثمّ فقد ازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه ، قال ابن إسحاق « فلما ردّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا هم أهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم » .

بيت الله هذا أغرى به نفر من هُذيل تبعا ملك اليمن ، وقالوا له : « أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، إنه بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده » ، فاستشار تبع رجاله ، فقالوا له : « أيها الملك ماأراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، مانعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت مادعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً » ، ونصحوه بزيارة البيت وتعظيمه والطواف به وتكريمه ، فقبل نصحهم ، وطاف ونحر ، وحلق رأسه ، وأطعم الناس ، ثم كسا البيت .

لقد كانت حماية البيت إذن منوطة بالله تبارك وتعالى ، والله حافظ على مبنى

البيت ، ومنع أبرهة من هدمه ، فى ذات العام الذى ولد فيه نبى الهدى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، ليكون بقاء البيت ووجوده إيذاناً بمولده عليه الصلاة والسلام ، وليكون حدث الفيل إرهاصاً لمقدم حدث جليل ، ونقلة هائلة للإنسانية ، وتحولا خطيراً للتاريخ البشرى ، ومرحلة هامة ذات شأن فى تاريخ الحياة ذاتها ، فقد شاءت إرادة الله أن يحمل محمد بن عبد الله رسالة الحق إلى خلقه ، متمما بها نعمته . وفضله على الخلق كله ، مختتماً بها رسالات السماء إلى أهل الأرض .

٣ – وبزغ نجم أحمد

فى عام الفيل بزغ نجم أحمد ، وولد رسول الله ﷺ .

وحدث بعد ولادته عليه السلام ، أن ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة ، وخلص له ملك اليمن ، فسارت إليه وفود العرب وأشرافها للتهنئة ، وكان ضمن هذه الوفود وفد لقريش عليه عبد المطلب ، فلما مثل الوفد بين يدى سيف ، عرف عبد المطلب فأدناه منه وأكرمه .

ودعا سيف عبد المطلب وحده فى خلوة وقال له : « ياعبد المطلب إنى مفوض إليك من سر. علمى مالوكان غيرك لم أبح له ، ولكن رأيتك معدنه وأطلعتك عليه ، فليكن عندك ، مطويًّا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه أمره ، إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اخترناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيره ، خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة » ، فتملكت الدهشة عبد المطلب ، وسأل : « أيها الملك فثلك من سَرَّ وبَرّ ، فما هو فداك أهل الوبر؟ » ، فقال سيف : « إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة » ، فقال عبد المطلب : « أبيت اللعن ، لقد أتيت بخير ماأتى بمثله وافد ، فلولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه

لسألته من بشارته إياى ماأزاد به سرورا » فقال سيف : « هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد ، اسمه أحمد يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل منا له أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه ، يضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض ، تكسر الأوثان وتخمد النيران ، ويعبد الرحمن ويدحر الشيطان ، قوله فصل وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله » ، فسأل عبد المطلب : « أيها الملك عز جدك وعلا عقبك وطاب ملكك وطال عمرك ، فهل الملك سارّى بإفصاح ، فقد أوضح بعد الإيضاح ؟ » ، فقال ابن ذى يزن : « والبيت ذى الحجب ، والعاملات على النصب ، إنك ياعبد المطلب لجده غير الكذب » ، فخرّ عبد المطلب لدى سماعه ذلك ساجداً ، فقال له سيف « ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست بشىء مماذكرت لك » ، فقال : نعم أيها الملك ، كان لى ابن وكنت به معجباً رفيقاً ورقيقاً ، فزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، فأتت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كل ماذكرت من علامة » فنصحه سيف قائلا : « احتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة من أن تكون لك الرياسة ، فيبغون له الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، وهم فاعلون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعلم أن الموت يجتاحنى قبل مبعثه ، لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره

وأهل نصرته وموضع قبره » .

كانت هناك بشائر كثيرة تشير إلى أن نبيًّا جديداً سيأتى إلى العالم يصلح أمر الناس ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويهديهم إلى الخير والصلاح ، ويدعوهم إلى عبادة الله وتقواه . . وردت البشارات فى الكتب السماوية ، وعرف بها اليهود والمسيحيون ، وأيقنوا أن النبى المنتظر اسمه محمد ، وعرفوا صفاته التى وردت فى التوراة والإنجيل .

روى أن عبد المطلب رأى فى منامه قبل مولد الرسول ﷺ ، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى الشرق وطرف فى الغرب ، ثم عادت كأنها شجرة وعلى كل ورقة منها نور ، وأهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ، فلما قصّ رؤياه على أهل العلم ، فسروها له بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض .

ولد رسول الله .

وكانت كل الأحداث تشير إلى أنه نبى الأمة .

مات أبوه عبد الله وهو مازال جنيناً فى بطن أمه .

وماتت أمه وهو فى السادسة من عمره ، وهى فى طريق عودتها من زيارة لبنى النجار بالمدينة ، ودفنت بالأبواء (موقع بين مكة والمدينة سمى بذلك لأن السيول كانت تتبوأه أى تحل فيه) .

وعاش مع جده عبد المطلب فلما بلغ ثمانى سنين مات جده .

ولم يبق له إلا عمه أبو طالب شقيق أبيه أبا وأمًّا ، وفى كنفه عاش الرسول ،

وصحبه فى رحلة جهاده وكفاحه ورسالته ، وكان أبو طالب أميناً على ابن أخيه وهو صغير ، فأولاه عنايته ورعايته وحبه وعطفه وبره وتقديره ، وكان أميناً عليه وهو كبير يواجه مسئوليات الدعوة ، فأعطاه الأمان والحماية ، ووقف فى وجه قريش كلها يدفع عنه ضرهم ويصد عنه عداءهم ، ويعطيه الثقة ، ويهبه الأمن ، ويمده بالقوة .

ولقد كانت كفالة جده ثم عمه له ﷺ بعد موت أبيه وأمه مذكورة فى الكتب القديمة من علامات نبوته ، كما كان كثيرون من العارفين بالعلم من أصحاب الأديرة يعرفون ذلك أيضاً ، فقد حدث أن صحب أبو طالب ابن أخيه فى تجارة ، ونزلا معاً براهب صاحب دير ، فقال له الراهب : « ماهذا الغلام منك ؟ » فقال أبو طالب : « ابنى » ، فقال الراهب : « ماهو بابنك ، وماينبغى أن يكون له أب حىّ » فتعجب أبو طالب وسأله : « ولم ؟ » ، قال الراهب : « لأن وجهه وجه نبى ، وعينه عين نبى ، وهو النبى الذى يبعث لهذه الأمة » .

وفى بصرى التقى أبو طالب والراهب بحيرا الذى رأى وهو بصومعته رسول الله فى الركب وغمامة تظله من بين القوم ، ثم لما نزلوا فى ظل شجرة ، رأى الغمامة قد أظلت الشجرة ، التى مالت أغصانها على رسول الله حين استظل تحتها ، سأل بحيرا أباطالب : « ماهذا الغلام منك ؟ » ، فقال أبو طالب : « ابنى » ، قال : « ماهو ابنك ، وماينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا » ، فقال : « هو ابن أخى » ، فسأل : « فما فعل أبوه ؟ » ، قال : « مات وأمه حبلى به » ، قال : « صدقت ، ومافعلت أمه ؟ » قال : « توفيت » ، قال :

« صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلاده ، واحذر عليه اليهود ، فوالله لو رأوه وعرفوا منه ماعرفت لتبغينه شرًّا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » .

ولقد تحدثت كتب السيرة بمارواه أحبار اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب عن رسول الله قبل ولادته لما تقارب زمانه ، استخلاصاً مماوجدوه فى كتبهم من صفته وعلاماته وصفة زمانه ومايدعو إليه .

ومثال ذلك ماروى عن سلمة بن سلامة وهو من أصحاب بدر قال : « كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فسأله القوم : أو ترى هذا كائناً ، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يجزون بأعمالهم ، قال : نعم والذى يحلف به ، فقالوا : ويحك ومآآية ذلك ، قال : نبى من نحو هذه البلاد (وأشار بيده إلى مكة) » .

ومثال ثان فقد روى عمرو بن عنبسة السلمى : « رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية فلقيت رجلا من أهل الكتاب من أهل تيماء (مدينة بين المدينة والشام) فقلت إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة . . فدلنى على خير من هذا ، قال يخرج من مكة رجلٌ يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتى بأفضل دين ، فلم يكن لى همة منذ قال ذلك إلا مكة » .

وروى شيخ من بنى قريظة أن رجلا من يهود أهل الشام يدعى ابن الهيبان قدم إليهم قبل الإسلام بسنين فحل بين أظهرهم ، فلما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت ، قال مخاطباً يهود المدينة : « يامعشر يهود ، ماترينه أخرجنى من أهل الخمر إلى أرض البؤس والجوع ؟ » ، فقالوا له : « أنت أعلم « ، فقال : « فإنما قدمت هذه الأرض أتوكف (أنتظر) خروج نبى قد أظل زمانه ، وهذه البلد

مهاجره ، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه » .

وحدّث أمية بن أبي الصلت،أبا سفيان فقال له : « إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلدنا ، فكنت أظن أنى هو ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبد مناف » .

وفى سوق بصرى سمع طلحة بن عبد الله راهباً يحدّث الناس عن نبى اسمه أحمد ، ويقول هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة وحرة وسياح .

ونكتفى بهذا القدر ومن أراد المزيد ففى كتب السيرة مايغنى ويفيد .

عاش رسول الله فى حياة أمه وقبل وفاتها فترة من حياته وهو صغير فى بنى سعد ، حيث كانت ترضعه وتقوم على تنشئته حليمة السعدية ، التى أخذته وهى تعرف أنه يتيم فقير ، فقد قالت لزوجها : « والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه » ، فوافقها وقال : « لابأس عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » .

عاش رسول الله معها فى بنى سعد حتى بلغ الخامسة ، وبدت لها خلال مدة حياته معها أمور تشير إلى أنه سيكون له شأن وأى شأن . . أمور تتصل بها وبحياتها كهذا الخير الوفير العميم الذى حلّ ببيتها ، وقالت فى ذلك : « لما دخلت به ﷺ لم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته » . . وأمور تتصل به ﷺ فى سلوكه وتكوينه ونشأته وقالت فى ذلك : «كان يشب شبًّا لايشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً (شديداً) » ، وقالت « لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك ، وألقيت محبته

ﷺ واعتقاد بركته فى قلوب الناس ، حتى إنّ أحدهم كان إذا نزل به أذى فى جسده أخذ كفه ﷺ فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعاً ، وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو شاة » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، كان أول كلام تكلم به ﷺ حين فطمته حليمة رضى الله عنها ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا » ، وفى رواية أخرى : « إن أول كلام تكلم به ﷺ وهو عند حليمة لا إله إلا الله ، قدوساً قدوساً ، نامت العيون ، والرحمن ، لا تأخذه سنة ولا نوم » .

ثم أمور تأتى من السماء بأوامر منها تعدّه وتجهزه للمهمة الكبرى التى سيتولاها بعد حين ، من هذه الأمور هذا الحدث الذى روته كتب السيرة من شق بطنه عليه السلام ، قال ابن اسحاق : « حدثنى ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : « يارسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ » ، قال : « نعم أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا ، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، بطست من ذهب مملوءة ثلجاً ، ثم أخذانى فشقا بطنى واستخرجا قلبى فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال زنه بمائة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها » .

وجاء فى السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ قال : «كنت مسترضعاً فى بنى سعد ، فبينا أنا ذات يوم منتبذاً (منفرداً) من أهلى فى بطن واد مع أتراب لى ، إذ أتى رهط ثلاثة معهم طست ذهب ملآن ثلجاً ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هراباً حتى أتوا على شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : مارأيكم ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا ، يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ؟ وماذا تصيبون من ذلك ؟ فإن كنتم لابدّ قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فليأتكم مكانه ، فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لايجيبون جواباً ، انطلقوا هراباً مسرعين إلى الحىّ يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلىّ فأضجعنى على الأرض إضجاعاً لطيفاً ، ثم شق بطنى مابين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مسًّا ، واستخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثانى منهم لصاحبه تنحّ عنه ، فنحاه عنى ، ثم أدخل يده فى جوفى ، فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه ، فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها ، وإذا بخاتم فى يده من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبى فامتلأ نوراً ، وإن السكينة سرت فيه ، ثم أعاده مكانه فوجدت برد الختم فى قلبى دهراً ، ثم قال الثالث لصاحبه تنح عنه ، فنحاه عنى ، فأمرَّ يده مابين مفرق صدرى إلى منتهى عانتى ، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى ، وختم عليه ثم ضمونى إلى صدرهم ، وقبلوا رأسى ومابين عينى ، ثم قالوا ياحبيب الله لم ترع ، إنك لو تدرى مايراد بك من الخير لقرت عيناك » .

وثمة أمر هام .

فإن اسم محمد لم يكن معروفاً لدى العرب ، ولم يكن متداولا فى الجاهلية .
فلما سارت الروايات والأقوال بأن نبيًّا منتظراً قد آن أوانه وأن اسمه محمداً ، أصبحت النبوة أمل كثيرين ومرتجاهم ، فكل تمنى أن تكون النبوة فى بيته ومن نسله وذريته ، ولهذا بدأ البعض يطلق اسم محمد على من يرزق به من أبناء ، وقال صاحب الروض الأنف : « لايعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلاّ ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ وبقرب زمانه وأنه يبعث من الحجاز أن يكون ولداً لهم ، وهم محمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن الجلاح بن الحريش ، ومحمد بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك وكان عنده من علم الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، وفعلوا ذلك » .

وسئل محمد بن عدى «كيف سماك أبوك فى الجاهلية محمداً » ؟ ، فقال : « سألت أبى فقال : خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام ، فنزلنا عند غدير عند دير ، فأشرف علينا الديرانى وقال : إن هذه للغة قوم ماهى لغة أهل هذه البلاد ، فقلنا له : نحن قوم من مضر ، فقال من أى المضاير ؟ ، فقلنا : من خندف ، فقال لنا : إن الله سيبعث فيكم نبيًّا وشيكاً فسارعوا إليه ، وخذوا حظكم ترشدوا فإنه خاتم النبيين ، فقلنا له : مااسمه ؟ قال : محمد ، ثم دخل ديره ، فوالله مابقى أحد منا إلا زرع قوله فى قلبه ، فأضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلاماً سماه محمداً ، رغبة فيما قاله ، قال : فلما انصرفنا ولد لكل واحد منا غلام فسماه محمداً رجاء أن يكون هو » .

وروى أن سفيان بن مجاشع نزل على حيّ من تميم فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهى تقول : « العزيز من والاه ، والذليل من خالاه » ، فسألها سفيان : « من تذكرين لله أبوك ؟ » ، فأجابته : « صاحب هدى وعلم وحرب وسلم » ، فقال لها : « من هو لله أبوك ؟ » ، فقالت : « نبى مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث للأحمر والأسود اسمه محمد » ، فقال : « أعربى أم عجمى ؟ » ، فقالت « أما والسماء ذات العنان والشجر ذوات الأفنان ، إنه لمن معدّ بن عدنان ، حسبك فقد أكثرت ياسفيان » ، فأمسك سفيان عن سؤالها ، ومضى إلى أهله ، وكانت امرأته حاملا فولدت له ولداً فسماه محمداً ، رجاء منه أن يكون هو النبى الموصوف .

لما حملت السيدة آمنة برسول الله ﷺ أمرت على حد قول أبى جعفر محمد ابن على بن الحسين أن تسميه محمدا .

وقد أطلق عبد المطلب هذا الاسم على وليده حين أخبر بولادته ، عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « لما ولد رسول الله ﷺ عق عنه جده بكبش وسماه محمداً ، فقيل له ياأباالحارث ، ماحملك على أن تسميه محمداً وليس من أسماء آبائك ولاقومك ؟ قال : أردت أن يحمده الله فى السماء ويحمده الناس فى الأرض » .

لقد اختار الحق هذا الاسم لرسوله وخاتم أنبيائه ، فحفظ للاسم رونقه وشرفه ، فلما سمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ، حمى الله تبارك وتعالى هؤلاء أن يدّعى أحد منهم النبوة أو يدعيها أحد له ، حتى تحققت له ﷺ

٤ – خديجة . . . الطاهرة

كانت السماء تعد رسول الله ليقوم برسالته التى اصطفاه من أجلها الله تبارك وتعالى ، وكان الله تعالى فى سابق علمه يعلم أن الرسول سيجد معارضة من قومه ، وهم أصحاب المكانة والسيادة والسلطة والجاه فى مكة ، التى تنطلق منها الدعوة ، ولهذا فإن الحق تعالى أعد له وسائل الدفع والمقاومة والحماية ، والمناخ اللازم المناسب لاستمرار الدعوة للدين الجديد .

وكان رسول الله وهو يعلن دعوته ويسعى سعيه بين الناس للإيمان به وبدعوته ، فى حاجة مادية إلى نوعين من الحماية ، كان فى حاجة إلى حماية بشرية تحميه من الكفار الذين أخذوا على عاتقهم مقاومة الدعوة والوقوف ضدها دفاعاً عن دين الآباء والأجداد ، ودفاعاً عن السيادة والسلطة التى كانت لهم ، ودفاعاً عن حقوقهم التى وهبها لهم مجتمعهم المكىّ ، وقد تولى هذه الحماية عمه أبو طالب فكان يصد عنه أذى الكفار وأذى المشركين .

وكان الرسول فى حاجة أيضاً إلى حماية له داخل بيته ، وهو يتلقى الوحى ويعد خطط تنفيذ مايؤمر به ، كما كان فى حاجة إلى الراحة النفسية فى لحظات خلوته داخل بيته حيث يجب أن يتوافر له الهدوء والاستقرار ، ولقد هيأ له الحق تبارك وتعالى الحماية والنصرة والمؤازرة داخل بيته ، مصدراً إيمانيًّا فى البيت كان

متمثلا فى زوجه خديجة بنت خويلد .

وخديجة كانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا وأحسنهن جمالا ، وهى بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى بن قصىّ ، فهى إذن ترتبط فى نسبها بنسب رسول الله ﷺ ، عن نفيسة بنت منية قالت : «كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة ، وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهم مالا وأحسنهن جمالا ، وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة ، يقال لها سيدة قريش ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر له ذلك ، وقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل » .

خرج رسول الله فى تجارة لخديجة إلى الشام ، فعندما بلغ عليه السلام خمساً وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب : « يابن أخى ، أنا رجل لامال لى وقد اشتد الزمان وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ، هذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيراتها ، فيتجرون لها فى مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك ، لمايبلغها من طهارتك ، وإن كنت لأكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ، ولكن لاتجد لك من ذلك بدًّا » ، فقال له رسول الله : « لعلها ترسل إلىّ فى ذلك » ، وصدقت رؤيته عليه السلام ، فقد بعثت إليه خديجة وقالت : « إنى دعانى إلى البعثة إليك مابلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ماأعطى رجلا من قومك » ، فلما بلغ ذلك أبا طالب قال له : « إن هذا لرزق ساقه الله إليك » .

خرج رسول الله ﷺ فى تجارة السيدة خديجة ومعه غلامها ميسرة ، فلما بلغا سوق بصرى نزل رسول الله فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا ، فسأل الراهب ميسرة – وكان يعرفه : « من هذا الذى نزل تحت الشجرة ؟ » ، فأجابه : « رجل من قريش من أهل الحرم » ، فقال له : « مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى » ، ثم سأله : « أفى عينيه حمرة » ، قال : « نعم ، لاتفارقه » ، فقال الراهب : « هوهو ، وهو آخر الأنبياء ، ويااليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج » ، وفى رواية أخرى أن الراهب تقدم من رسول الله وقبَّل رأسه وقدمه وقال : « آمنت بك وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله فى التوراة » ، ثم قال : « يامحمد ، قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة فأوضح لى عن كتفك » ، فأوضح له فرأى خاتم النبوة فقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، النبى الأمى الذى بشر به عيسى بن مريم ، فإنه قال : لاينزل بعدى تحت هذه الشجرة إلا النبى الأمى الهاشمى العربى صاحب الحوض والشفاعة وصاحب لواء الحمد » .

وانتهى موسم التجارة ، وعاد رسول الله ومعه ميسرة إلى مكة بعد أن حقق ربحاً غير عادى ، قال عنه ميسرة مخاطباً رسول الله : « يامحمد ، اتجرنا لخديجة فما ربحنا قط ربحاً أكثر من هذا الربح على وجهك »[1] .

وثمه أمر فى غاية الأهمية لفت نظر ميسرة خلال العودة ، فقد رأى ملكين يظلان رسول الله ويحميانه من الشمس ، وقد اشتد الحر ، ومال ميسرة إلى

---

(١) فى الأصل « اتجرنا لخديجة أربعين سنة » ونحن نرى أن هناك خطأ فى تقدير المدة لأن المعروف أن رسول الله تزوج منها وهى فى الأربعين والرحلة كانت قبل الزواج .

الرسول وألقى الله تعالى فى قلبه محبته ، فلما التقى بسيدته خديجة روى لها ماشاهده خلال السفر ، وأعاد على مسامعها ماقاله الراهب نسطورا ، فحدثت بذلك كله ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان نصرانيًّا فقال لها : « إنْ كان هذا حقًّا ياخديجة ، إن محمداً نبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر هذا زمانه » .

إن الربح المادى الذى حققه رسول الله فى تجارته لخديجة كان عاملا مؤثراً فى اتجاه عواطفها إليه عليه السلام ، هذا فوق أن عاملا آخر كان له أثره أيضاً فى تعاطفها ، هذا العامل هو أمانته وخلقه وصدقه ووفاؤه ، فقد وجدت فيه الشاب التقى النقى الورع الطاهر ، ولقد كان لهذا العامل أثر بعيد المدى فى نفسية خديجة ، ولاعجب فالخلق هو عماد الشخصية ، وإن السيدة خديجة حين أشارت إلى أخلاقيات الرسول وسلوكياته فى حديثها إليه فى أمر الخروج بالتجارة ، وقد أشرنا إليه ، كانت تؤكد حقيقة تميز بها رسول الله على أقرانه واعترف له بها قومه حتى إنهم أطلقوا عليه اسم الأمين ولقبوه به .

ولاشك فى أن رسول الله ﷺ كان على خلق عظيم ، فهذا أمر لايختلف فيه اثنان ، وقد أكده الحق تبارك وتعالى حين خاطب نبيه : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وأكده الرسول ذاته فى قوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، وهذا الخلق هو الذى أهله عليه السلام للتفوق والتميز ، لأنه كان يعنى حب الفضيلة والقيام بحقها ، وحسن العشرة ، ولطف المودة ، وصلة الرحم ، وحب الناس ، والتواضع والأناة ، والحياء ، والإعراض عن الجاهلية ، وترك المهاترات ، وتهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، والتآلف مع الناس ، والتقرب

إليهم ، وكان مسلك رسول الله هو مسلك الحريص المتحفظ فى حذر مماحواليه ، ولهذا اصطفى خلانه من صفوة رجال شهد لهم الجميع بالخلق الحميد والسجايا الطاهرة والطباع الرفيعة والسلوك العفيف ، ومن هذا المعنى لم يكن عليه السلام يميل إلى ماكان يفعله فُسَّاق قومه ، وقيل إنه حضر سحرهم ولهوهم مرتين فقط فى حياته ، إلا أن الحق ألقى عليه النوم فى المرتين حتى لايرى ولايسمع مايمس الخلق الرفيع النزيه .

ولقد تحدث وليم موير عن خلق الرسول وعما اتصف به من صفات فقال : « تجمع كل مراجعنا وأسانيدنا فيما ينسب إلى محمد فى شبابه من سيرة التواضع والاحتشام وطهارة الخلق على صورة نادرة الوجود بين المكيين » ، واستطرد قائلا : « وبما وهب له من عقل راجح وذوق رقيق وحرص دقيق وعمق فى التأمل ، عاش منطوياً على نفسه طويلا متخذاً من تأملاته العقلية دون ريب شاغلا لوقت الفراغ الذى كان يقتله غيره من ذوى الطابع الخسيس باللهو السمج والفجور الماجن والسلوك الخليع ، ولقد وقع خلق ذلك الشاب القويم ومسلكه الورع العف موقع الحمد والثناء من قلوب قومه جميعاً ، وبإجماعهم عن طيب خاطر نال لقب الصادق الأمين » .

وكان لقب الأمين تعبيراً صادقاً عن خلق رسول الله ﷺ ، ويبعث الاستقرار والراحة النفسية عند الناس ، إذا ماتعاملوا معه عليه السلام أو ارتبطوا به ، كما حدث يوم أن شرعت قريش فى إعادة بناء الكعبة ، وكان الرسول يومها فى الخامسة والثلاثين ، فقد طغى سيل عظيم على الكعبة فصدع جدرانها ، وكانت امرأة تقوم بتبخيرها فطارت شرارة إلى كسوتها فأحرقت

جدرانها ، وكانت الكعبة عرضة لأن يسرق منها ماتحتويه من نفائس لأنها لم تكن ذات سقف ، ولهذا قررت قريش هدمها وإعادة بنائها ، وشاركت كل القبائل فى هذا العمل العظيم ، فقسمت المنطقة إلى مساحات لكل قبيلة مساحة خاصة بها ، تجمع فيها الحجارة اللازمة لإقامة البنيان .

ولما كان البناء يحتاج إلى مال للإنفاق ، فقد تطوع القوم كل على قدر سعته ، وكان المال كله نفقة طيبة ليس فيها مهر بغى ، ولابيع ربا ، ولامظلمة أحد من الناس ، وكان أبو وهب عمرو بن عابد (خال عبد الله أبى رسول الله وكان شريفاً فى قومه) قد طلب ذلك من القوم فى حديث لهم قال فيه . « يامعشر قريش ، لاتدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيباً ، لاتجعلوا فى نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً ولاقطعتم فيه رحماً ، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس .

وحدث أن رمى البحر بسفينة قادمة من مصر ، يملكها رجل اسمه باقوم فحطّمها عند جدّة ، وكان باقوم يعمل بالنجارة ، فسعى الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى هناك ، وابتاعوا السفينة ، ثم صحبوه إلى مكة ليسهم فى بناء الكعبة .

واقتسمت قريش جوانب البيت ، وعملت كل قبيلة فى جانبها تهدمه ثم تعيد بناءه ، حتى إذا مابلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، أرادت كل قبيلة أن تنال شرف وضعه فى مكانه ، واختلف القوم واختصموا ، وأعدوا أنفسهم للمحاربة والقتال ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة – وكان أسنّ الناس شريفاً مطاعاً – تدخل بين القوم ، وعرض رأياً قبلوه جميعاً ، قال : « اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا » ، والتقت الأنظار بالباب ليروا من

أول داخل ، وكان محمد بن عبد الله ، فاستبشروا خيراً وسعدوا به وقالوا : « هذا الأمين رضينا حكمه » ، وعرضوا عليه الأمر فقال لهم : « هلموا إلىّ بثوب » ، فنشره ووضع بيديه الكريمتين الحجر فى الثوب ، وطلب منهم « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » ، فحملوه جميعاً إلى موضعه فتناوله بيده ووضعه موضعه ، وكان هذا الموقف فرصة أوجدتها الظروف لتؤكد مدى اقتناع القوم بمحمد خلقا وكمالا ، ولتجعل ارتباطهم به أشد ، وثقتهم فيه أقوى ، واعتمادهم عليه مرغوبا ، وامتثالهم لأحكامه أمرا مقبولا محبوبا ، وكانت أخلاق الرسول وصفاته هى الخلفية التى دفعت بقريش إلى قبول رأيه وتنفيذه » .

وكذلك كانت أخلاقه عليه السلام وصفاته حافزاً للسيدة خديجة لتفكر فى الزواج منه ، وفاضت مشاعرها وعواطفها وأحاسيسها بهذه الرغبة ، فقد وجدت فيه الشاب التقى النقى الطاهر الزكى الأمين الصادق ، زين شباب قريش ، من لاحت فى جبينه سمات النبل ، وتجمعت فيه خصال الكمال ، وظهرت عليه أمارات السيادة والقيادة والوفاء والنجابة .

وبعثت خديجة إليه نفيسة بنت منية سرًّا تعرض عليه الزواج ، فلما التقت به سألته : « يامحمد مايمنعك من أن تتزوج ؟ » فأجابها : « مابيدى ماأتزوج به » ، فقالت : « فإن كفيتك ذلك ، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف ألا تجيب ؟ » قال : « فمن ؟ » ، قالت : « خديجة » ، قال : « وكيف لى ذلك » ، قالت : « علىّ وأنا أفعل » ، وعادت نفيسة إلى سيدتها وأخبرتها بموافقته .

وتزوجت خديجة من رسول الله .

وبدأت معه رحلة كفاح ، كانت بجانبه تشجعه وتؤيده وتخفف عنه ،

كانت الزوجة التى أعطته كل حنانها وحبها ، فخفف ذلك ماكان يلقاه من الكفار ، وعاشت معه وبجانبه تهيئ له الأمن والأمان والاستقرار والهدوء والسكينة ، وكانت نعم الرفيق ، ساعده الأيمن وعضده فى الدعوة والثبات والجهاد ، ولقد قدّر رسول الله دورها وأثرها ، فلم يتزوج بغيرها ، بل ظلت زوجته الوحيدة طوال حياتها ، فلما ماتت أعزها بعد مماتها ، حتى بلغ من حبه لها أن أكرم صديقاتها ومن يعز عليها من الرجال والنساء ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى كان إذا ذبح شاة قال : « أرسلوها إلى أصدقاء خديجة » ، وقال : « إنى لأحب حبيبها » ولقد قدرت السماء أيضاً دورها وأثرها ، فقد جاءها جبريل بالسلام من ربها من فوق سبع سماوات ، وروى أن جبريل أتى رسول الله وقال له : « أقرئ خديجة السلام من ربها » ، فقال لها الرسول : « ياخديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك » ، فقالت : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » ، وقد بشرها الحق جل جلاله على لسان نبيه ﷺ ببيت فى الجنة من قصب (لؤلؤ مجوف) ، لاصخب فيه ولانصب (تعب) .

عاش معها رسول الله خمس عشرة سنة قبل البعثة ، وعشراً بعدها ، فكانت خير مثل للمرأة الكاملة .

وفى فترة معاشرته عليه السلام لها وعندما بلغ أربعين سنة ، بعثه الله تبارك وتعالى رحمة للعالمين ، وبشيراً للناس كافة ونذيراً ، فقال أنس رضى الله عنه : « إن رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين » ، وقال ابن إسحاق : « ذكر الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها حدثته : إن أول

مابُدئ به رسول الله ﷺ من النبوة الرؤيا الصادقة لايرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح » ، وفى رواية أخرى : «كان لايرى شيئاً فى المنام إلا كان » ، وهذا يعنى أن رؤيا النبى ﷺ كلها صادقة وإن كانت شاقة ، وكانت تأنيساً له عليه السلام .

وعن علقمة بن قيس : « أول مايؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ نفوسهم ثم ينزل الوحى ، لأن رؤيا الأنبياء وحى وصدق وحق ، لا أضغاث أحلام ولاتخيل من الشيطان ، إذ لاسبيل له عليهم ، لأن قلوبهم نورانية ، فما يرونه فى المنام له حكم اليقظة ، فجميع ماينطبع فى عالم مثالهم لايكون إلا حقًّا ، ومن ثم جاء : « نحن معاشر الأنبياء تنام عيوننا ولا تنام قلوبنا » .

وعن السيدة عائشة قالت : « وحبب الله إليه الخلوة فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده » ، فكأن الله قد حبب إلى رسوله الخلوة التى يكون بها فراغ القلب عن أشغال الدنيا فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة ، ويكون بها أيضاً الانقطاع عن الخلق لاسيما إن كانوا على باطل .

واتخذ رسول الله ﷺ غاراً بأعلى جبل حراء للخلوة والتأمل والتفكر فيما حوله بعيداً عن صخب الحياة وضجيج الناس ، وعن عبيد بن عمير قال : «كان رسول الله ﷺ يجاور من غار حراء فى كل سنة شهراً « .

وجاء عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : « إذا خلوت سمعت نداء أن يامحمد . . يامحمد ، وأسمع صوتاً ، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر ، وأخشى أن يكون بى جنون» ، فقالت له : «كلا يابن عم ، ماكان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم وتصدق

الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف » .

وكانت السيدة خديجة فى هذه الفترة تطمئنه وتشجعه وتعينه .

وفى حراء نزل الوحى على الرسول وجاءه جبريل فقال له : أبشر يامحمد ، أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة » ، قال رسول الله ﷺ : « فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : « اقرأ ، قلت : ماأنا بقارئ ، قال : فغتنى به (أى ضمنى وعصرنى) حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ماأقرأ ، فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ماأقرأ ؟ ، فغتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قال : ماذا أقرأ ؟ ماأقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ماصنع بى ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان مالم يعلم) ، قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً ، قال : فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وماأتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك » .

وعاد رسول الله إلى بيته فحدّث خديجة بالذى رآه ، فهدأت من روعه وقالت : « أبشر يابن عمى واثبت ، فوالذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » ، ثم أسرعت إلى ورقة بن نوفل لتخبره بما أخبرت به ولتسمع

رأيه فقال لها : « قدوس قدوس ، والذى نفسى بيده لئن كنت صادقة ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى يأتى موسى الذى هو جبريل ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له يثبت » ، فعادت الزوجة الوفية إلى زوجها ونقلت إليه رأى ورقة .

والتقى ورقة برسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فسأله أن يقصّ عليه مارأى وسمع ، فلما أخبره الرسول عليه السلام قال له : « والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتقاتلنه ولتخرجن ، ولئن أنا أدركت هذا اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه » .

قال الحافظ بن حجر : « هذا الذى وقع له ﷺ فى ابتداء الوحى من خصائصه إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه جرى له عند ابتداء الوحى مثل ذلك » .

ولقد أرادت الزوجة الوفية أن تتأكد ممارواه لها زوجها رسول الله ، لاشكًّا فيما رواه ولكن تثبيتاً للأمر فى نفسها ، فإذا ثبت انعكس ذلك على تأييدها وتشجيعها فقالت للرسول : « أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك » ، فوعدها ، فلما جاءه جبريل عليه السلام قال الرسول : « ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءنى » ، فقالت : « قم يابن عم فاجلس على فخذى اليسرى » ، ففعل ، فسألته : « هل تراه ؟ » ، فلما أجابها بالإيجاب قالت : « فتحول فاجلس على فخذى اليمنى » ، ففعل فسألته : « هل تراه ؟ » ، فلما أجابها بنعم قالت : « فتحول فاجلس على حجرى » ، ففعل فسألته : « هل تراه ؟ » ، فأجابها بنعم فألقت بخمارها ورسول الله مازال فى

حجرها وسألته : « هل تراه ؟ » ، فقال : « لا » ، فقالت له : « يابن عم ، اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وماهذا بشيطان » ، واقتنعت خديجة فمنحت رسول الله كل عونها وأحاطته بالحب والرعاية .

وبدأ تنزيل القرآن على رسول الله فى شهر رمضان . (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) ، (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ، (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ، (إن كنتم آمنتم بالله وماأنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) .

صدّقت السيدة خديجة بما جاء رسول الله من ربه ، وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدّق بما جاء منه ، وظلت بقية حياتها معه عليه السلام مؤمنة صادقة الإيمان مسلمة صحيحة الإسلام ، وخفف الله بذلك عن نبيه ، فكلما سمع شيئاً يؤذيه وكلما ضاق صدره بتكذيب الناس له ، فرّج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتهون أمر الناس عليه .

لقد وقفت خديجة رضى الله عنها – وهى أعقل العقائل وفضلى الفواضل التى كانوا يلقبونها بالطاهرة – بجانب زوجها تواجه معه مقاومة الكفار ، لم تخش سطوتهم ، ولم تهب جبروتهم ، ولم تهن عزيمتها ، ولم تلن قناتها ، ولم يضعف إيمانها ، وظلت صامدة بقوة يقينها ، صابرة برسوخ عقيدتها ، واثقة بنصر ربها ، مطمئنة إلى أن زوجها يجعل للبشر كل البشر خير الدنيا والآخرة .

وورد عن الإمام علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد ، وأشار الراوى إلى السماء والأرض .

٥ – الرسالة والمعجزة

اختار الله تبارك وتعالى محمد بن عبد الله رسولا إلى الناس كافة يحمل إليهم رسالة السماء ، ويدعوهم إلى حياة جديدة تختلف فى صورها وأسلوبها ونمطها عن حياتهم التى يحيونها .

نزل الوحى على الرسول والناس يعيشون فى ظلام وجهل وضلال ، يعبدون الأصنام التى لاتضر ولاتنفع ولاتخلق ولاترزق ، ودعا الرسول إلى دين جديد رسالة من السماء حملها إلى قومه والأقربين ، ثم إلى العرب عامة والعالم كله ، ونبههم إلى ما هم فيه من غى وضلال ، وحارب فيهم الوثنية والشرك والفساد والشهوات والخرافات ، ودعاهم إلى التوحيد المطلق وإلى عبادة الله ، وأثار فيهم يقظة الضمير والإحساس بالمسئولية والتقدير للعهود ، وطالبهم بالعدالة والحرية والمساواة .

دعا رسول الله إلى الدين الجديد بكل مقوماته أقواماً كانوا يعيشون فى ظل معتقدات سائدة ، وديانات متعددة منذ زمن بعيد ، فما هى هذه المعتقدات والديانات ؟

فى الجزيرة العربية تعددت العقائد الدينية ، بعضها انتشر انتشاراً واسعاً والبعض كان محدوداً ولقد انتقلت هذه العقائد إلى الجزيرة عن طريق اتصالها

بدولتى الفرس والروم وماجاورها من بلدان أخرى .

فى فارس انتشر مذهب مانى وعقيدته هى المانوية وهو مذهب يدعو إلى الفناء ، ولهذا كان يمنع الزواج حتى لايكون هناك تناسل ، ودعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر فى الأرض ، وكان يرى فى وجود الإنسان لعنة فى الأرض ، وأن الخطيئة ستظل جاثمة على الأرض لأن الإنسان نزل إليها نتيجة خطأ وقع فيه أبوه ، ولم يقبل الناس هذا المذهب فلم يدم طويلا ، وقيل إنهم ثاروا على مانى وسلخوا جلده وعلقوه مصلوباً لسباع الطير.

وظهر بعده وفى فارس أيضاً مذهب آخر دعا إليه مزدك ، نادى بالشيوع فى الأموال والأعراض ، وزعم أنه جاء ليبطل الخلاف بين الأمم والمجتمعات ، ولينهاهم عن المباغضة والقتال ، ولما كان أكثر مايقع بسبب النساء والأموال ، فقد أحلها ، وجعل الناس شركة فيها ، ولم يجد هذا المذهب قبولا لدى الناس ، فقتلوه ، وتتبعوا شيعته بالقمع والتشريد .

وسادت فى فارس عبادة النار.

أما فى بلاد الروم فقد سادت المسيحية ، وآمن بها الملوك ومعظم رعاياهم ، إلا أن مبادئ المسيحية لم تطبق ، لأن القياصرة لم يتأثروا بتعاليم الدين برغم اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأكبر بالدين المسيحى ديناً رسميًّا فى مرسوم ميلانو الصادر فى ٣١٣ م .

وتعددت مذاهب المسيحية ، وانقسم كل مذهب إلى فرق وشيع ، وأصبح لكل رأيه الذى يخالف به آراء الآخرين ، وتنكرت الطوائف لبعضها البعض ، مماأدى إلى العداوة والبغضاء بينها ، وأصبحت المسيحية اسماً فقط .

وكما سبق القول تأثرت الجزيرة العربية بهذه المعتقدات الدينية ، ويقول ابن قتيبة إن المجوسية عرفت فى قبائل تميم ، وشاعت بين قبائل البحرين ، وذلك لقربها من بلاد الفرس ، ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه : « مطلع النور » « إن المجوسية شاعت فى هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لاتكلفهم بناء الهياكل ولانحت الأصنام ، ولاينكرون فى عبادتهم للنار شيئاً ، لأن إشعال النار للقرى والاستسقاء وإشهار الحلف لم تكون مجهولة فى البادية العربية » .

وانتشرت فيها أيضاً الوثنية التى تتمثل فى عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشجار والأحجار ، وكان العرب ينظرون إليها على أنها رمز للقوى الطبيعية ، فكانوا يطوفون بها ويتاجرون عندها ، ويعتبرون المكان الذى فيه المعبود حرماً ، وكانت الوثنية بهذه الصورة جامدة بليدة فى شكلها وموضوعها ، تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصبة التى لاتسمع لصوت العقل ولاتصغى إلى الشعور ونداء الوجدان .

وردت الوثنية إلى العرب من خارج الجزيرة وسرت إليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ، وقد سبق الإشارة إلى رحلة عمرو بن لحى الخزاعى إلى البلقاء فى بلاد الشام حيث العماليق ، فوجدهم يعبدون الأصنام ، فسار بأحدها وهو هبل إلى مكة ووضعه عند الكعبة ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، وأغرم العرب بعبادة الأوثان ، فكثرت الأصنام ودخلت كل بيت ، وتعددت حتى إن أبا رجاء العطاردى قال : «كنا فى الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها » ، وكانت هذه الأصنام هى الوسيط بين عبادها وبين الإله ، ويقول المرحوم الشيخ أبوزهرة فى كتابه « خاتم النبيين » إنه

برغم أنهم أغرموا بعبادة الأوثان إلا أنهم لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا كما قال تعالى عنهم : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، وفضيلته بذلك يفرق بين وثنية الروم ووثنية العرب إذ قال : « إن وثنية العرب فيها إيمان بالله وإن لم يكن وحدانية ، بل كانوا يشركون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فلايجىء فى وثنيتهم ذكر الله » .

وانتشرت فى البحرين والبادية عبادة النجوم والكواكب ، وروى أنه كان بمكة رجل يسمى أبوكبشة عبد نجماً اسمه الشِّعْرى ، ودعا قريشا إلى عبادته ، واستجابت له بعض القبائل كلخم وقريش وخزاعة .

وعُرفت فى الحيرة عبادة القمر ، وفى اليمن عبادة الشمس .

وانتشرت اليهودية فى الجزيرة ، وكانت أعم انتشاراً من المجوسية ، وعاش اليهود فى خيبر ويثرب ووادى القرى وتيماء ، ولم يندمج اليهود فى شعب الجزيرة ، وسادت اليهودية أيضاً فى اليمن على يد أسعد أبوكرب أحد ملوك حِمير ، وتحمس لها ذو نواس ، وحمل أهل نجران المسيحيين على اعتناق اليهودية ، ويقول الأستاذ العقاد إنه أيًّا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فإنها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للإصلاح والصلاح ، وجاء فى كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » للدكتور إسرائيل ولفنسون » إن يهود حلب ودمشق كانوا لايعتبرون اليهود « فى جهات خيبر يهودا حقا إذا لم يحافظوا على الديانة اليهودية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تامًّا » .

وانتشرت المسيحية بين الغساسنة والمناذرة ، وكانت نجران وهى بأوسط بلاد

العرب مركز المسيحية وأهم معاقلها ، وكانت بها كنيسة نجران التى بناها بنو عبد الدار ، وقد انتقلت إليها من بلاد الروم بواسطة فيميون الذى أسس كنيسة المنوفسيته ، ودخلتها قبائل متعددة مثل غسان وربيعة وتغلب وبنى أسد وقضاعة وغيرها ، ولم تكن المسيحية كما قال الأستاذ العقاد حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه بل كانت شيعاً سياسية ومذاهب متنازعة .

وظهرت فى الجزيرة فئة قليلة تدعو إلى دين إبراهيم فى مقدمتها ومن رجالها ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث وكعب بن لؤى ، وتفرق هؤلاء يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، وقد ذكر ابن إسحاق أن أسماء بنت أبى بكر قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يامعشر قريش والذى نفسى بيده ماأصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ، وأخرج الفاكهى بسند له إلى عامر بن ربيعة قال : لقيت زيد بن عمرو وهو خارج من مكة يريد حراء فقال : « ياعامر إنى قد فارقت قومى واتبعت ملّة إبراهيم وماكان يعبد إسماعيل من بعده » ، وكان ورقة بن نوفل قد كره عبادة الأوثان ، وطلب الدين فى الآفاق ، وقرأ الكتب وذكره البقاعى فقال : « إنه ممن وحّد الله فى الجاهلية ، فخالف قريشاً وسائر العرب فى عبادة الأوثان ، وسائر أنواع الإشراك ، وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطأوا دين إبراهيم الخليل عليه السلام ، ووحّد الله تعالى واجتهد فى طلب الحنيفية دين إبراهيم » ، وكان كعب بن لؤى يأمر الناس بالتفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وكان يحثهم على صلة الأرحام ، وأعلن تمسكه بدين إبراهيم وأخذه بالحنيفية وإيمانه بالبعث والحساب .

والآن فهناك سؤال يفرض نفسه .

هل أدت هذه المعتقدات والديانات إلى خلق الإنسان الشريف والمجتمع النظيف ؟ وهل سادت الأخلاقيات التعامل بين البشر فى مختلف مواقعهم ؟

إن ملوك فارس حيث المجوسية كانوا يحكمون بأسلوب دكتاتورى ، ويُخْضِعون الناس لحكمهم خضوعا يتساوى مع العبودية ، فلم يكن هناك قانون ، وكانت الأمور متجمعة فى يد الأكاسرة ، وهم قوم طغاة متجبرون دستورهم فى الحكم الهوى المطلق والشهوة الجامحة ، وعُرِفت أرض فارس بأنها موطن انحلال سياسى واجتماعى وانحلال فى الأسرة وانحلال فى الأفراد .

أما نظام الحكم فى دولة الروم فكان يعتمد على القوة والبطش والتنكيل ، وذكر المؤرخ جيبون فى حديثه عن الدولة الرومانية : « لقد فُقِدت فيها الحرية والفضيلة والشرف » ، أهدر الحكام فيها حقوق الناس وكرامتهم وإنسانيتهم فعاشوا فى خوف وذل .

أما المجتمع العربى فى الجزيرة فكان يقوم على أساس وجود طبقتين سادة وعبيد ، للسادة كل ماتعطيه الحياة من حقوق ، ولاشىء للعبيد ، يعيش العبد فى خدمة سيده الذى يفكر له ويقوده ويوجهه حتى أصبح لايملك لنفسه شيئاً من إرادة الحياة ، فكل حياته بكل فروعها ملك سيده إن شاء منحه الحياة وإن شاء منعه وحرمه ، وهو فوق ذلك مجتمع انتشر فيه الفساد ، وأى فساد أكثر من انتشار الربا والزنا والخمر والميسر ومظاهر أخرى لاتمت إلى الإنسانية كوأد البنات ، وهل وأد البنات عمل يتصف بالإنسانية أم هو عمل يتسم بالوحشية

يهدم كل عاطفة نبيلة وكل إحساس رقيق ؟ .

إذن فالمجتمعات التى أشرقت عليها الرسالة المحمدية مجتمعات فاسدة ، حكامها طغاة ، وشعوبها مهضومة الحقوق ، ذابت فيها الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، وساد الفساد ، وانتشر الكره والمقت والحقد والغضب ، وأصبحت القوة هى صاحبة السيادة تضرب وتبطش وتتصرف كيفما شاء صاحبها وأراد ، دون معارضة لأن أحداً لايملك من المعارضة ولايستطيع أن يقول كلمة « لا » .

وكان لابد من دعوة جديدة تتمثل فى أهدافها إنسانية الإنسان ، فتعيد إليه صوابه ، وتتيح له حياة يصوغ فيها فكره وحضارته ، ويعبر عن وجوده وكيانه ، ويعيشها بإرادته ومشيئته .

وبين آلام المخاض التى عاشتها الإنسانية كانت تومض فى أفق الجزيرة بشرى رسالة خاتمة تناقلتها التوراة والإنجيل ورددها الكهان والرهبان والأحبار .

وكانت رسالة الإسلام . . حمل لواءها رسول الله ﷺ ، رسالة تدعو إلى دين جديد جامع ، يشمل الزمان كله والمكان كله ، وهى بذلك تختلف عن الرسالات السابقة التى جاءت محدودة زماناً ومكاناً ، وفى هذا قال رسول الله ﷺ : « أرسلت إلى الناس كافة ، وكان كل نبى يرسل إلى قومه » .

واختار الله سبحانه وتعالى مكة حيث أول بيت وضع للناس ، لتكون موضع انطلاق الدين الجديد ، وكان لهذا الاختيار معنى ومغزى ، فمكة قمة الميادين لانطلاق الدعوة الجديدة ، وهو موطن قريش ، القبيلة ذات السيادة والعزة والجاه والسلطان والمهابة ، وصاحبة الكلمة النافذة على الجزيرة كلها ،

وذات المركز المرموق بين كل القبائل .

ولما كان الإسلام رسالة جامعة غير محدد بزمان أو مكان ، ولما كانت مكة هى منطلق الرسالة فإن الله تبارك وتعالى حين اختار رسوله محمد بن عبد الله لأداء الرسالة وللدعوة إليها ، فقد ميّزه عن سائر الرسل والأنبياء بخمس ماأعطاها أحداً منهم ، وقد ذكرها رسول الله فى قوله عليه السلام : « لقد أعطيت خمساً ماأعطيهن أحد قبلى ، أما أولاهن فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان كل نبى إنما يرسل إلى قومه ، ونُصرت بالرعب على العدو ولو كان بينى وبينه مسيرة شهر[1] ، وأحلت لى الغنائم كلها وكان من قبلى يعطونها ويحرمونها ، وجُعِلت لى الأرض مسجداً طهوراً أينما أدركتنى الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلى لايعطون ذلك ، وقيل لى سل فإن كل نبى قد سأل فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » .

وبدأت الدعوة للدين الجديد ، وذكر ابن القيم فى زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس ، الأولى هى النبوة ، ثم إنذار الأقربين ، ثم إنذار القوم من قريش قريبهم وبعيدهم ، ثم إنذار أهل الجزيرة قاصيهم ودانيهم أى سكان المدر والوبر ، ثم إبلاغ الدعوة بعد ذلك إلى غير العرب أى إلى خارج الجزيرة ، وقد اعترض الشيخ محمد أبو زهرة على اعتبار النبوة من مراتب الدعوة لأنها هى كيان الدعوة ، وهو اعتراض نتفق معه فيه .

---

(١) روى أن سيدنا سليمان جاء إلى الحرم مع جنده من الإنس والجن وغيرهما وقال لهم : « هذا مكان يخرج منه عربى يعطى النصر على جميع من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده فى الحق سواء لاتأخذه فى الله لومة لائم . . فطوبى لمن آمن به » .

بدأ رسول الله دعوته سرا ، وكانت خديجة أول من آمن ، وقال ابن الأثير : « خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين ، ولم يتقدمها رجل ولا امرأة » ، وعن ابن إسحاق أن خديجة كانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت ماجاء به عن الله تعالى ، وفى كلام الحافظ بن كثير : « الظاهر أن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا قبل كل أحد : خديجة وزيد وزوجة زيد أم أيمن وعلىّ » ، ثم أسلم أبو بكر بعد أن قال لرسول الله : « صدقت ، بأبى أنت وأمى ، وأهل الصدق أنت ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » ، وروى ابن إسحاق أن رسول الله قال : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان عند أبى بكر ، ماعكم عنه حين ذكرته له ، وماتردد فيه » .

ثم تتابع المؤمنون سرًّا ، فأسلم كثيرون رجالا ونساء .

ثم بدأت الدعوة للأقربين (وأنذر عشيرتك الأقربين) واستجاب كثيرون .

ثم أُمِر بالجهر بالدعوة فجهر بها ودعا الناس علانية ، واتخذ من دار الأرقم ابن الأرقم المخزومى مكاناً يجتمع فيه بأصحابه المؤمنين ، يعلمهم الدين ويقرأ عليهم القرآن .

وسمع كثيرون من خارج مكة ممن يترددون عليها بالدين الجديد ، فكانوا يقبلون على الرسول يسمعون منه ويناقشونه ، وكان البعض يقتنع ويستجيب ، فإذا عادوا إلى بلدهم وأهلهم عرضوا عليهم الدين الجديد ويقنعونهم فيؤمنون ويدخلون فيه .

ومنذ لحظة الإعلان عن الدين الجديد بدأت قريش تفكر فى كنه هذا

الدين . وهالهم ماينطوى عليه من خطر على سيادتهم لأنه يبشر بحرية المستعبدين ، ويأخذ بناصية المستضعفين ، ويدعو إلى المساواة التامة بين الناس ، ويطالب بالعدالة المطلقة ، ولايعترف بامتياز لفرد أو بتسلط لإنسان ، ولايفرق بين غنى وفقير فى الحقوق وفى الواجبات ، ويساوى بين الجميع فهم كأسنان المشط .

ومنذ بدأت الدعوة عارضها وتنكر لها أصحاب السيادة والمكانة والامتياز والسلطان ، وعلى رأسهم عبد العزّى الذى عُرِف باسم أبى لهب فقد قال : « مارأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مماجئتهم به » .

وكان للمعارضة أسباب متعددة ، أولها الخوف من زوال السيادة والسلطان ، وثانيها الحسد فى أن تكون النبوة فى محمد بالذات ، وهو يتيم فقير على حين هناك عظماء القوم وكبراؤهم ، وقد أكد هذا المعنى الوليد بن المغيرة فى قوله : « أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود ابن عمرو الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين » ، كما أكده أبو جهل حين سأله الأخنس بن شريق » . « ياأبا الحكم ، مارأيك فيما سمعنا عن محمد ؟ » ، قال : « ماذا سمعت ؟ ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ ، والله لانؤمن به ونصدقه » .

ومن أهم هذه المسوغات بعض ماجاء به الدين الجديد من نظم وقواعد وأسس تتعارض تماماً مع أفكار قريش وتختلف كل الاختلاف مع آرائهم

ونظرياتهم ومفهومهم لما يجب أن يكون عليه مجتمعهم ، هذا المجتمع عاش غارقاً فى الشرك عاكفاً على شرب الخمر ولعب الميسر ، أجاد موزورث سميث فى تصويره فقال : «كان القرشيون ماديين على مبدأ كل واشرب ، ولم يكن لديهم إيمان أو شعور بالمسئولية ، تفشى الجهل بينهم حتى إن أعرق الناس شرفاً كان يعد الجهل مفخرة ، وكانت الرذيلة متفشية ، والروابط الجنسية منحلة ، وما كان الزانى يلقى عقاباً ، ولم يكن للمعنويات عندهم معيار ، ولم يكن البغاء بالأمر الذى يخدش الشرف حتى إن رجالا من الأعلام البارزين لم يجدوا غضاضة فى إدارة المواخير ، وكانت النساء فى الدرك الأسفل من الحطة ، فلم يقم لهن وزن إلا من ناحية أنهم متاع » .

هذا المجتمع المنحل جاء الإسلام ليغير ملامحه على أسس جديدة نظيفة من الهدى والتقوى والصلاح ، فلافسق ولافجور ولا إثم ولاعدوان ، وليطهر حياة أهله وناسه من العادات الذميمة ويرقى بها إلى مستوى الحب والإخاء والسلام ، وكان من الطبيعى أن ترفض قريش هذا التحول المطلوب .

وثمة مسوغ آخر هام فإن قريشاً كانت تعلم أن الإيمان بمحمد لايعنى النطق بالشهادة فقط ، لأن الأمر لو كان مقصوراً على النطق بها لقالوها وأراحوا أنفسهم ، ولكنهم كانوا يعلمون مدلول هذه الشهادة ويدركون أن كلمة لا إله إلا الله تعنى أنه لامعبود إلا الله ، ولا آمر لشيء إلا الله ، ولافاعل لكل شيء فى الوجود إلا الله ، وهم يريدون أن يكونوا آمرين وفاعلين .

ولقد أفزعهم موضوع الحساب والعقاب فقد كان أمراً جديداً على تفكيرهم وعقليتهم ، فالحياة عندهم غاية ليس وراءها غاية ، فكانوا يستمتعون بها قدر

مايستطيعون ، وكان المستقبل غيباً محجوباً أمامهم ، وكانوا ينحرون للأوثان ويتقربون إليها أملا فى العفو والسماح ونسيان المعصيات التى يرتكبونها والتكفير عنها ، لهذا كان وقع فكرة الحساب والعقاب كالسياط ، أفزعتهم الفكرة وروّعتهم ، وكان من الطبيعى أن يرفضوا هذه الفكرة أساساً وبالتالى يرفضوا الدين الذى جاء بها .

اتخذت قريش موقف المعارضة وتكتلت قواها ضد الدعوة والداعى والداخلين فى دعوته ، واتخذت كافة الوسائل وسلكت مختلف السبل لصد هذا الدين ومنعه وقبره ، وكانت المعارضة تشتد كلما وجد الدين استجابة وقبولا ، فكثيرون اقتنعوا به ودخلوا فيه ثقة وإيماناً وعقيدة ، وكان الداخلون فيه ألواناً مختلفة وأنماطاً متعددة ، فيهم الفقير كعامر بن فهيرة ، والغنى كعثمان بن عفان ، والعبد كبلال ، والسيد كعبد الرحمن بن عوف ، والشاب كسعد بن أبى وقاص وجعفر بن أبى طالب ، والمرأة كفاطمة بنت الخطاب امرأة سعيد بن زيد ، ولم يقتصر الداخلون على نوعية معينة كما كانت قريش تدّعى حين وصفتهم بأنهم أراذل الناس أى الطبقة الدنيا .

ومضى رسول الله على أمر الله مظهراً لأمره لايرده شىء ، ووقف إلى جانبه عمه أبو طالب منعه وقام دونه وأعلن حمايته له وذوده عنه ولم يسلمه أبداً ، قال له حين رأى تصميمه وأحس بجديته : « اذهب يابن أخى فقل ماأحببت فوالله لااسلمك لشىء أبداً » . ثم أنشد . .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

وأبو طالب له شأنه ومكانته وشرفه بين قريش ، ولهذا كانت لحمايته آثار واضحة البصمات .

ووقفت خديجة بجانب رسول الله ، فكان إذا عاد إليها مكدوداً من قومه واسته وخففت عنه وشجعته ، فإذا خرج خرج من عندها مجدداً عزمه على مواصلة الجهاد مزوداً منها بزاد الإيناس والتأييد .

وكانت دعوة الرسول تعتمد أساساً على معجزته الكبرى التى وهبته إياها السماء وهى القرآن ، فقد اقتضى الأمر أن يكون كل رسول معه برهان صدقه بأنه رسول الله حقًّا ، وبرهان الصدق هو المعجزة ، والمعجزة أمر خارق للعادة لايستطيع أن يأتى بمثله بشر ، ولااستحالة مع الخوارق التى تأتى بها السماء ، فإن الخالق جلّ وعلا يقدر على كل شىء ، والخوارق بالنسبة إليه كالأمور العادية ، لأنها لاترقى إلى مستوى القدرة على الخلق لأول مرة ، ويقول الشيخ متولى الشعراوى : « حين يأتى إنسان ويقول إنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهج الله أفنصدقه أم نطالبه بإثبات مايقول ؟ ، إذن كان لابد من أن تجىء مع كل رسول معجزة تثبت صدقه فى رسالته وفى بلاغه من الله ، وأن تكون المعجزة مما لايستطيع أحد أن يأتى به ، وأن تكون أيضاً ممانبغ فيه قومه ، لماذا ؟ حتى لايقال إن الرسول قد تحدى قومه بأمر لايعرفونه ولاموهبة لهم فيه ، فالتحدى يجب أن يكون فى أمر نبغ فيه القوم حتى يكون للتحدى قيمة ، ولذلك نلاحظ فى معجزة كل رسول أنها جاءت فيما نبغ فيه قومه » .

ولما كانت طبيعة الرسالة إلى البشر تقتضى أن يكون الرسول منهم ، فإن معجزة كل رسول لابد وأن تتجانس مع عصره ، ولكن الله تبارك وتعالى حين

جعل القرآن معجزة رسول الله إنما جعلها المعجزة الباقية الدائمة إلى يوم الدين : (إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الحجر ٩) ، ولقد بقى القرآن كما أنزله الله تعالى على نبيه دون تحريف أو تبديل ، ولم يصبه ماأصاب الكتب السابقة عليه إذ لم يتكفل الله بحفظها ، بل أوكل ذلك للناس فقال تعالى : (والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله) (المائدة ٤٥) ، ولعل السر فى ذلك أن الكتب السماوية جىء بها لزمن محدود ، والقرآن جىء به لكل زمان .

كان السحر فى عهد موسى ظاهرة اجتماعية مسيطرة فكانت معجزته متجانسة مع هذه الظاهرة ، وكان الطب فى عهد عيسى ظاهرة اجتماعية مسيطرة فكانت معجزته متجانسة مع هذه الظاهرة ، ولما كانت البلاغة ظاهرة اجتماعية مسيطرة وقت بعث رسول الله ﷺ ، ولما كان القوم الذين بعث إليهم عرفوا بالبلاغة والفصاحة وحسن الأداء وجمال المنطق وسلاسة التعبير ، فقد كانت معجزته عليه السلام متجانسة مع هذه الظاهرة ، وكانت هذه المعجزة كتاباً وهو القرآن .

ولايغيب عن الذهن أن معجزات الأنبياء تختلف عن رسالاتهم ، فهى شىء آخر غيرها ، فعصا موسى وأفعالها الخارقة كانت معجزته وهى غير توراته ، وطب عيسى كان معجزته وهو غير إنجيله ، أما القرآن معجزة محمد فلم يكن يختلف عن جوهر الرسالة ، فقد جعل الحق حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتاباً واحداً هو القرآن خاتم الكتب السماوية ، ولم يكن كتاب شريعة فقط إنما كان كتاب شريعة ودلائل نبوة ، ومن أجل ذلك كان للقرآن سلطان آسر على نفوس مستمعيه ، فما إن استمع إليه أحد حتى وجد له رهبة وجلالا ، حتى الجن استمعت إلى القرآن فملكت آياته قلوبهم واستولت روائعه على عقولهم (قل

أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) (الجن ١/٢) ، واستمع عتبة بن ربيعة – وكان قد وفد على رسول الله يدعوه باسم قريش إلى ترك دعوته التى فرق بها بين قومه ويغريه بصور متعددة من صور الإغراء ليتخلى عنها – استمع إلى بعض آيات القرآن من سورة (فصلت) ثم عاد إلى قومه وقال : « إنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولابالسحر ولابالكهانة » .

ولقد روت كتب السيرة أن ثلاثة من أشد قريش خصومة للنبى وعداء لدعوته ، وهم أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ، خرجوا فى ليلة واحدة كل منهم بمفرده ودون علم صاحبيه ليستمعوا إلى محمد وهو فى بيته يرتل القرآن ، وأخذ كل منهم مجلسه ، وباتوا يستمعون له دون أن يعلم أحدهم بمكان صاحبيه ، فلما تفرقوا للعودة إلى منازلهم جمعهم طريق واحد وقال بعضهم لبعض « لاتعودوا ، فلو رآكم أحد لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمد عليكم » ، وفى اليوم التالى وجد كل منهم نفسه راغباً فى التوجه إلى مكانه بالأمس ليستمع إلى تلاوة القرآن ، وتلاقوا عند الفجر وتلاوموا ، وبرغم ذلك التقوا أيضاً فى اليوم الثالث ، فلما رأوا ماهم عليه من ضعف أمام سحر القرآن وبلاغته وسلطانه ، تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم ، هذه الرواية تؤكد أن القرآن أعجزهم وأنه كان تحديا خطيراً لملوك البلاغة والفصاحة وأساطينها ، تحدى أن يأتوا بمثله ، ثم أمعن فى التحدى أن يأتوا بعشر سور ، ثم أمعن فى التحدى أن يأتوا بسورة من مثله ، وكان هذا هو إعجاز القرآن ، ولقد أدركه القوم وهم أقدر الناس على تذوق بلاغة القرآن وكان الواحد منهم يسمع الآية

تتُلى فيخر ساجداً ، وروى أن إعرابيًّا سمع قول الحق (فاصدع بماتؤمر) (الحجر ٩٤) فخرّ ساجداً فقيل له «كيف وأنت مشرك» ، فقال : « إنما سجدت لبلاغتها » .

ولما كان القرآن هو المعجزة الأبدية التى تعهد الحق برعايتها وصيانتها وحفظها ، فإن الحق رأى أن يكون لرسول الله بعض الخوارق التى يلمسها قومه ، لتكون عاملا ملموساً وواضحاً يساعد على الاقتناع ، منها مثلا نبع الماء من بين أصابعه عليه السلام ، وتفجر الماء ببركته وابتعاثه بمسه ودعائه ، وتكثير الطعام ، وتكلم الشجرة ، وانشقاق القمر ، ورحلة الإسراء والمعراج .

وكان أول من جهر بالقرآن – بعد رسول الله ﷺ – عبد الله بن مسعود فقد اجتمع أصحاب رسول الله وقالوا : « والله ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر به لها فمن رجل يسمعهموه » ، فعرض عبد الله نفسه ولكنهم خافوا منهم عليه « إننا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه » ، فقال لهم : « دعونى فإن الله سيمنعنى » ، وفى الضحى وقريش فى أنديتها أتى عبد الله المقام وقرأ بعض آيات من سورة الرحمن رافعاً بها صوته ، فقاموا إليه وجعلوا يضربون فى وجهه ، وقال لأصحابه : « ماكان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً » .

٦ - . . . وكان الصراع

وبدأ الصراع فى مكة .

رسول الله يدعو جهاراً للدين الجديد من غير مواناة ولاتقصير ، فيلتقى بأهل مكة ذاتهم ويلتقى بالوفود القادمة إليها فى المواسم ، وأخذت الدعوة طريقها إلى الأسماع والقلوب فلم تشرق شمس يوم جديد إلا والمسلمون فى ازدياد والدعوة فى انتشار .

وقريش وقفت تعارض الدعوة وتقاوم الرسول ، واتخذت فى سبيل ذلك وسائل متعددة ، وأساليب مختلفة ، وبذلت أقصى الجهد فى محاولات لقبر الدين الجديد .

بدأت فهاجمت الداعى أول ماهاجمت ، وحاولت أن تثبت للناس عدم صدق دعوته حتى ينصرفوا عنه فلا يجد أذناً مصغية أو قلباً متفتحاً ، قالوا عنه إنه ساحر دون أن يكون لديهم دليل سحره ، ثم قالوا شاعر وهم يعرفون أنه لم ينظم شعراً فى حياته ، ثم قالوا مجنون وهم الذين وصفوه بالأمين لكمال خلقه ، ولما فشلوا فى كل مادعوه اتجهوا إلى عمه أبى طالب الذى أظله بالحماية علّهم يجدون عنده السبيل والخلاص ، فأرسلوا إليه وفداً يقول له : « ياأبا طالب إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا

والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله ، وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الطرفين » ، فردّهم أبو طالب ردًّا جميلاً .

* ثم عادوا إليه مرة أخرى ومعهم عمارة بن الوليد وقالوا : « هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك ، وسفّه أحلامهم ، فنقتله فإنما هو رجل برجل » ، وأبدى أبو طالب لهم سخف الفكرة ورفض اقتراحهم « والله لبئس ماتسوموننى ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لايكون أبداً » .

وأتى عتبة بن ربيعة رسول الله مبعوثاً من قومه إليه يعرض عليه أموراً حتى ينصرف عن دعوته قال : « فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاجمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لانقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا تراه لاتستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » ، فلما فرغ عتبة قال له الرسول : « فاسمع منى » ، وقرأ آيات من القرآن من سورة السجدة وعتبة منصت ، ثم أمسك على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، وعاد إلى قومه بوجه غير الوجه الذى ذهب به ، فقد لقى رجلا لامطمع له فى مال ولا فى تشريف ولا فى ملك ولا هو بالمريض ، وسمع قولاً ماسمع مثله قط ، وقال لقومه : « إنى سمعت قولاً والله

ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولابالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوّا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه . . » .

ثم اجتمعت قريش برسول الله فى الكعبة ، فقالوا له : « سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ماسألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول » ، فرد عليهم رسول الله قائلا : « ماأنا بفاعل ، وماأنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بيننا » .

ثم عادوا فقالوا له : « سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وكنوزاً من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما تراه تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم » ، فقال لهم : « ماأنا بالذى يسأل ربه هذا » .

وتجاسر عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة وهو ابن عمة رسول الله ﷺ وقال : « والله لاأؤمن بك أبداً ، حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك ، حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بنسخة منشورة معها أربعة من الملائكة

يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك »

وكان من الواضح أنهم طلبوا ماطلبوا لاليؤمنوا ، ولكن ليضعوا رسول الله فى موقف حرج ، وليعلنوا قوة جدلهم ، ودليل ذلك قول ابن عمته : « ماظننت أنى أصدقك » ، فالتكذيب سابق للدليل ، والكفر راسخ فى النفوس ، والتصميم على المقاومة يمتلك مشاعرهم وعواطفهم ، وجاء رد رسول الله يزيدهم حقداً وغضباً فقالوا : « إنا والله لانؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يامحمد ، وإنا والله لانتركك ومابلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا » .

وكان التحدى واضحاً ، فأغروا برسول الله سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله لايعبأ بهم ، مظهراً لأمر الله لايستخفى به مبادلهم بما يكرهون من عيب آلهتهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم .

ولجأوا إلى اليهود — وهم يعلمون أنهم كارهون لدعوة رسول الله ، مكذبين لما جاء به — يستعينون بهم ، فبعثوا إليهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، وقالوا لهما « سلاهم عن محمد ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء » ، فخرجا إلى المدينة وسألا أحبار اليهود عن رسول الله ، وقالا لهم : « إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا » ، فقال لهما أحبار اليهود : « سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهوى نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا رأيكم فيه ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، وماكان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد

بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ، وسلوه عن الروح ، ماهى ؟ »
ووجهت قريش الاسئلة الثلاث إلى رسول الله ، فجاءه جبريل بسورة الكهف
وفيها خبر الفتية الذين ذهبوا ، وبأمر ذى القرنين (ذكر أن ذى القرنين كان
رجلا صالحاً من أهل مصر من ولد يونان بن يافث بن نوح وكان من الملوك
العادلة وكان الخضر صاحب لوائه الأكبر– راجع السيرة الحلبية/الطبعة
الأولى/١٩٦٤) ، وبالجواب عن الروح الوارد فى سورة الإسراء .

ولم تقتنع قريش واستمرت فى غيها ، وبدأت موجة الاستهزاء برسول الله ،
قال ابن عبد البر : « وكان المستهزئون الذين قال تبارك وتعالى فيهم : إنا كفيناك
المستهزئين أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبى معيط والحكم بن العاص بن أمية
والعاص بن وائل » ، من استهزاء أبى جهل مثلا أنه كان يسير خلف رسول الله
يخلج بأنفه وفمه ويسخر منه ، ومن استهزاء أبى لهب وعقبة أنهما كانا يطرحان
القذر على باب رسول الله وفيهما قال عليه السلام : «كنت بين شر جارين
أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى » ،
وكان عقبة يبصق على رسول الله ، وقال الضحاك : « لما بزق عقبة لم تصل
البزقة إلى وجه رسول الله ﷺ ، بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق
مكانها » ، وكان الحكم يغمز للنبى فدعا الرسول « اللهم اجعل به وزغا »
فرجف وارتعش .

وكان أكثر الناس عداوة للرسول عمه عبد العزى بن عبد المطلب
(أبو لهب) ، فقد كان شديد التعصب لدين قريش وتقاليدها ، وكان أشد ما يسوءه
أن تمس قداسة الآلهة أو تمتهن كرامة الآباء ، وكان فيه حدّة وسفاهة ، قال

لرسول الله حين اجتمع بقومه : « لاتخرج عن دين قومك ، ولاتعرضهم لغضب العرب ، فإن قومك لايستطيعون مقاومة العرب قاطبة ، وليس لهم بحربهم طاقة . . فاربع (احترس) على نفسك وعلى بنى أبيك ، واعلم أن العرب لن يتركوك ، ولن يشق عليهم أن يثبوا عليك فيقتلوك ، فارجع إلى دين آبائك وأجدادك خير لك ، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك الذى أنت فيه ، وحتى نحول بين العرب وبينك ، فنحن أولى بتأديبك حتى يثوب إليك رشدك وتبرأ من علتك » ، وقال له رسول الله ردا على قوله هذا بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الرائد لايكذب أهله ، ولوكذبت الناس جميعاً ماكذبتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين ، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً ، والله ماأعلم شابًّا جاء قومه بأفضل مماجئتكم به ، إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟ » ، وثار أبو لهب وقال : « وهذا والله الباطل والخيال وكلام النساء فى الحجال » ، واندفع فى عداوته دون أن يرعى رحماً ولاقربى ، وانساق فى عداوته انسياقاً عنيفاً حتى صار أعدى عدو للنبى ، وكذلك كانت امرأته أم جميل تحمل فى صدرها الضغن والكره والغضب والعداوة مثل ماكان يحمل زوجها ، وكانت تعمل على تحقيره وامتهانه ، وكانت ترمى فى طريقه الشوك والقذر ، ولم تكن تنطق باسمه فى

مجالسها أبداً ، وإنما كانت تدعوه مذمما ، ومما روى عنها قولها :

مذممـا قلينا

ودينه أبينـا

وأمره عصينا

واتجهت قريش اتجاهاً جديداً فتعمدوا إيذاء رسول الله ، وتولى هذه المهمة شيخ السفهاء من قريش أبو جهل الذى دبر أمر قتله ، غير عابىء ببنى هاشم إن هم أخذوا بثأره ، وأفصح عما دبره فقال : « يامعشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم » ، وفى الغد حمل حجراً وانتظر رسول الله بالمسجد ، فلما قام ليصلى تقدم منه حين سجد ، واحتمل الحجر حتى إذا مادنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونه مرعوباً ، قد يبست يداه على الحجر حتى قذفه من يده ، وقال لرجال من قريش كانوا يرقبونه « قمت لأفعل ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله مارأيت مثل هامته ولاقصرته (رقبته) ولاأنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلنى » .

وحاول عقبة أن يخنق رسول الله فى الكعبة ، فقد هاجم رسول الله وهو يصلى ووضع ثوبه على عنقه يريد خنقه ، فرآه أبو بكر فأسرع يدفعه وهو يقول : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب) .

وامتد الإيذاء إلى أصحاب محمد الذين كانت لهم عشيرة تحميهم فقد عُذب عثمان بن عفان ، إذ أوثقه عمه بحبل من مسد وجعل يضربه ضرباً مبرحاً ، وكان الزبير يُلف فى حصير ويُترك ليستنشق الدخان ، وضرب عمر بن الخطاب أخته فاطمة حتى سال منها الدم واعتدى على زوجها سعيد بن زيد ، وقُيِّد أبو جندل فى الحديد وحُبس ، وضُرب أبو بكر حتى شُج رأسه وسال دمه وغُشى عليه وكاد يهاجر إلى الحبشة لولا أن أجاره ابن الدغنة سيد الأحابيش .

أما أصحاب رسول الله الذين لم يكن لهم سند يحميهم أو قوة تمنعهم ، فقد كان إيذاؤهم صورة وحشية قاسية ، إذ انقضت كل قبيلة على عبيدها وإمائها يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ليتركوا دين محمد وليعودوا أدراجهم إلى دين السادة ، قال ابن إسحاق إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، فمن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم .

ومن هؤلاء الذين اضطهدوا وعذبوا بلال بن رباح ، كان سيده أمية بن خلف يلقيه إذا حميت الشمس وقت الظهيرة الذى تتحول فيه صحراء مكة إلى نارة قاتلة فيطرحونه على وجهه وظهره على حصاها الملتهب ، ويأمر بأن تلقى على صدره صخرة ضخمة ويقول له : « لاتزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى » ، فيتحمل بلال هذا البلاء ويرفض أن يعود إلى الشرك ويردد « أحد . . أحد . . » ، ورآه أبو بكر عتيق النار ومعتق أهل الإيمان فسأل أمية : « ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ وحتى متى ؟ » ، فأجابه : « أنت أفسدته فأنقذه مماترى » ويعرض عليه أبو بكر : « عندى غلام على دينك أسود أجلد

من هذا أعطيكه به » ، وأخذ أبو بكر بلالا وأعطاه حريته وأطلقه من عبوديته .

ومنهم خباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان الرومى ، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة ولم يقتصر التعذيب على الرجال وحدهم ، وإنما امتد إلى النساء أيضاً ، فعذّب أبو جهل زنُيْرة حتى عميت ، فقال لها : « إن اللاّت والعزى فعلا بك » ، فقالت له : « ومايدرى اللاّت والعزى من يعبدها ، ولكن هذا أمر السماء وربى قادر على رد بصرى » ، فردّ الله بصرها فقالت قريش : « هذا من سحر محمد » ، وعذّب الأسود بن عبد يغوث أم عُنَيْس وعذّب بنو عبد الدار النهدية ، وعذّب عمر بن الخطاب (قبل إسلامه) لبينة ، وقد اشتراهن أبو بكر ثم أعتقهن .

وتولى أبو جهل تعذيب أسرة كاملة أسلم أهلها جميعاً ، عمار بن ياسر وأبيه وأمه ، فمات ياسر نتيجة التعذيب ، وطعن أبو جهل سمية بحربة فى قلبها فماتت ، وشدّد العذاب على عمار تارة بالحر ، وتارة بوضع صخر شديد الحرارة حامياً على صدره ، وتارة بالتغريق ، وقال له : « لن نتركك حتى تسب محمداً وتقول فى اللات والعزّى خيراً » ، ففعل فتركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ روى له أمره ، فسأله الرسول « كيف تجد قلبك ؟ » ، أجده مطمئنا بالإيمان » ، فقال له الرسول : « ياعمار ، إن عادوا فعد » .

وكثيرون لم يتحملوا قسوة التعذيب واضطروا إلى مجاراة المشركين – كما فعل عمار – فكانوا يرضونهم بظاهر من القول وقلوبهم عامرة بالإيمان ، عن سعيد ابن جبير قال : « قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ومايُعذرون به عن ترك دينهم ؟ ، قال : نعم

والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى مايقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى به ، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة حتى يقولوا له اللّات والعزّى إلهك من دون الله ، فيقول نعم ، حتى إن الجُعل ليمر بهم فيقولون له هذا الجُعل إلهك من دون الله ، فيقول نعم ، افتداء منهم ممايبلغون من جهده » ، وقال ابن كثير : « فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ » .

وكان رسول الله يتألم لأصحابه ، وكان يدعوهم إلى التحمل والصبر حتى يأتى الله بالفرج ، وكان يؤكد لهم أن قوة احتمالهم ورسوخ إيمانهم وصبرهم على العذاب هو طريقهم إلى الجنة ، وأن الله مطلع على أحوالهم عليم بهم ، وأن نصره تعالى آت لاريب فيه ، وقد روى أن رسول الله ﷺ كان يمر بآل ياسر وهم يعذبون فيقول لهم : « صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » .

٧ – ملك لايظلم عنده أحد

تمادت قريش فى عداوتها وعدوانها ، وأصبح من الضرورى توفير الحماية للمسلمين ، ولكن عددهم مازال محدوداً لايشكل قوة للردع ، ورسول الله لايملك القدرة على منعهم مماهم فيه من بلاء ، والمسلمون جميعاً على مختلف مستوياتهم القبلية يتعرضون للتعذيب الوحشى ، وهم متشبثون بدينهم ، صابرون على ماينزل بهم ، وكلهم أمل فى ربهم ورجاء أن يجد لهم فرجاً ومخرجاً مماهم فيه .

وتطلب الموقف تصرفاً سريعاً عاجلاً توفيراً للحماية ، وفرض رأى واحد نفسه على الموقف ، وهو أن يترك المسلمون مكة فراراً بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وفرارا بأنفسهم من المهانة والسخرية التى يتعرضون لها دوما .

إذن فالرأى هو الخروج من مكة بحثاً عن الأمان والحماية ، وبعداً عن أيدى قريش ولكن إلى أين ؟ ، إن المكان الذى يخرجون إليه يجب أن تتوافر لهم فيه حرية الدين وحرية العبادة ، وحرية إقامة شعائر الدين ، كما يجب أن يكون هذا المكان غير خاضع لسلطان سادة قريش وسطوتهم .

واختار رسول الله الحبشة ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه « تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم » ، فسألوه : « إلى أين نذهب ؟ » ، فقال عليه

السلام « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لايظلم عنده أحد . وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

وكانت أول هجرة فى الإسلام إلى الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله ﷺ .

ولاشك فى أن الهجرة إلى الحبشة كانت فى مصلحة الإسلام والمسلمين ، ففوق ماحققته من دفع الأذى والاعتصام منه ومنع الفتنة ، فإنها كانت فرصة للتعريف بالإسلام ، وعرض مبادئه ، وشرح أهدافه ، وتوضيح معالم رسالته .

خرج إلى الحبشة – أول من خرج – أحد عشر رجلا وأربع نساء ، منهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه ، وقيل إن أول مهاجر كان حاطب بن أبى عمرو ، وقيل سليط بن عمرو ، إلا أن رسول الله قال : « إن عثمان أول من هاجر مع أهله بعد لوط » .

وكان على رأس هذا الفريق المهاجر عثمان بن مظعون ، وكان من أفراده عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ، ومصعب بن عمير ، وأبو حذيفة ابن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، وعامر بن ربيعة وامرأته ليلى بنت أبى حثمة ، وسهيل بن بيضاء وأبو سبرة بن أبى رُهم .

ثم خرج بعدهم كثيرون منهم جعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عُبيس ، وعمرو بن سعيد وامرأته فاطمة بنت صفوان ، وأخوه خالد وامرأته

أمينة بنت خلف ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه عبيد الله وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان .

وأجمعت المصادر على أن جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين كانوا ثلاثة وثمانين رجلا عدا ماكان معهم من الأولاد والنساء .

وفكر أبو بكر فى الهجرة حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ، فاستأذن رسول الله فى الهجرة فأذن له ، فخرج حتى إذا سار من مكة يوماً أو أكثر لقيه ابن الدغنة وهو سيد الأحابيش فسأله وجهته فقال : « أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ » ، فتعجب لموقف قريش من أبى بكر وسأله : لم ؟ « فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، ارجع فإنك فى جوارى » ، فرجع معه حتى إذا دخلا مكة قال ابن الدغنة : « يامعشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير » ، ولاشك فى أن لقاء أبى بكر وابن الدغنة كان من إعداد وترتيب السماء ، فإن الحق كان قد جعل لأبى بكر شرف صحبة رسول الله ومرافقته حين هجرته عليه السلام من مكة إلى المدينة ، وهكذا ادخرت السماء أبا بكر دون غيره لأعظم رحلة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، وفى تاريخ البشرية .

إلا أن جوار ابن الدغنة لأبى بكر لم يطل به الزمن ، فإن رجالا من قريش ساروا إليه وقالوا : « إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ماجاء به محمد يرق ، وله هيئة ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع مايشاء » ، وكان أبو بكر يصلى أمام بيته ، وكان رقيقاً إذا قرأ استبكى ، فيقف النساء والعبيد والصبيان عليه يعجبون

لما يرون من هيئته ، ومشى إليه ابن الدغنة وقال : « ياأبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، وقد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع ماأحببت » ، وأبى أبو بكر أن يكون لابن الدغنة رأى أو أمر أو سلطان فى شئونه بسبب جواره له فرد عليه جواره قائلا : « أرضى بجوار الله » ، وقام ابن الدغنة فقال : « يامعشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد ردّ علىّ جوارى ، فشأنكم بصاحبكم » .

استقبل النجاشى المهاجرين المسلمين أحسن استقبال ، وأكرم وفادتهم ، وهيأ لهم الحياة الهادئة الآمنة ، وتركهم فى أرضه أحراراً مطمئنين ، وشجعهم ذلك على أن يبعثوا فى طلب إخوانهم فى مكة الذين يتعرضون للتعذيب والأذى والمهانة ، قال جعفر بن أبى طالب : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا خير جار ، وأمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لانؤذى ولانسمع شيئاً نكرهه » .

وتلقى النجاشى رسالة من أبى بكر يوصيه بالمسلمين المهاجرين ، كما تلقى رسالة من رسول الله تضمنت أمرين هامين ، أولها دعوته إلى الإسلام ، وقد استجاب النجاشى للدعوة ، وكتب بذلك إلى الرسول وبعث وفداً من الحبشة على رأسه ابنه ، التقى بالنبى لبيان الطاعة والخضوع لله ولرسوله ، وثانيهما متابعة العطف على المهاجرين والإحسان إليهم وعدم إرهاقهم حتى يعيشوا فى ظله آمنين مستقرين مطمئنين ، وجاء فى رسالة الرسول إلى النجاشى ، « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من

روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكتب النجاشى إلى رسول الله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يانبى الله من الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام ، فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى مايزيد على ماذكرت ، وقد عرفنا مابعثت به إلينا ، وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً ، وقد بايعناك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وأرسلت إليك بأريحا بن الأصحم ابن أبجر ، فإنى لاأملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، فإنى أشهد أن ماتقول حق » .

روى البيهقى بسنده عن أبى أمامة فقال : « قدم وفد النجاشى على رسول الله ﷺ ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يارسول الله ، فقال إنهم كانوا لأصحابى مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم » .

ترى ماذا كان موقف قريش من هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة ؟

عندما علمت قريش بأمر الهجرة ، خرجت فى آثار المهاجرين حتى جاءوا إلى البحر فلم يجدوا أحداً منهم ولم يدركوهم .

ولكن بعد أن تيقنوا من وصولهم إلى الحبشة ، ومن حسن استقبال النجاشي لهم ، ومن حياتهم الهادئة الوادعة فى أرضه وبجواره ، أرادوا النكاية بهم وملاحقتهم وإفساد طيب الإقامة عليهم ، ومحاولة إخراجهم من هناك وإعادتهم ، قال ابن إسحاق : « لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ائتمروا بينهم ، أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي ، فيردهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من الأرض التى اطمأنوا بها وآمنوا فيها » ، وروى عن أم سلمة أنها قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أميناً على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولانسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمــروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا ممايستطرف من متاع مكة » .

واختارت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة وقيل عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة ، وزودتهما بالهدايا للنجاشي ولبطارقته ، قال ابن الأثير فى تاريخه الكامل : « لما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا ، وأن النجاشي قد أحسن صحبتهم ائتــمروا بينهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ومعهما هدية له وإلى أعيان أصحابه » ، وقال ابن إسحاق : « فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاش ليغروه بها » .

وأرادت قريش شيئا وأراد الله شيئا ، وكانت إرادة الله هى الغالبة ، فارتد مبعوثا قريش على أعقابهما دون أن ينالا غرضهما .

وصل عمرو وعبد الله إلى الحبشة ومعهما الهدايا ، فاتصلوا أول مااتصلوا بالبطارقة ، وسلموا كلا منهم هديته ، ثم حدثوهم عن غلمان من سفهائهم فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دين الأحباش ، جاءوا بدين مبتدع لايعرفه أحد فى الجزيرة أو فى الحبشة ، وأنهما قد جاءا مبعوثين من أهلهم لرد هؤلاء الغلمان ، وكان للهدايا أثرها فى نفوس البطارقة فوعدوهما بالمساعدة ومهدوا للقائهما بالنجاشى ، فلما التقى بهما سمع منهما ، وأشار عليه أصحابه بتسليم المسلمين ، قال عمرو مخاطباً النجاشى : « إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ، فرغبوا عنا وعن آلهتنا ، ولم يدخلوا فى دينكم بل جاءوا بدين مبتدع لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم إليهم » ، ولم ينس رجال النجاشى وعدهم لعمرو وزميله فقالوا بعد أن انتهى عمرو من حديثه : « ادفعهم إليهما فهما أعرف بحالهم » .

والنجاشى رجل دين ، ورجل حق وعدل ، ولايظلم عنده أحد كماقال عنه ﷺ ، ولهذا لم يشأ أن يقرر أمره ويتخذ قراره بناء على حديث عمرو ، وإنما أراد أن يستمع إلى الرأى الآخر قبل أن يصدر حكمه فقال : « لا والله ، حتى أعلم على أى شىء هم ؟ لاأسلم قوماً جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان ، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما ، وإن كانوا على غير مايقول هذان ، منعتهم وأحسنت جوارهم » .

ودُعى المسلمون المهاجرون للمثول بين يدى النجاشى ، فحضروا وقد اتفقوا فيما بينهم على أن يكون المتحدث جعفر بن أبى طالب ، فلما صاروا على باب النجاشى صاح جعفر قائلا : « جعفر بالباب يستأذن ، ومعه حزب الله » ،

فأجابه النجاشي : « نعم ، يدخل بأمان الله وذمته ، فدخل وخلفه رفاقه فسلموا بتحية الإسلام » .

وحاول عمرو أن يثير النجاشي عليهم فى أول اللقاء فقال : « ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك » ، فسأل النجاشي : « مامنعكم ألاّ تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أحيا بها ؟ » ، فقال جعفر على الفور : « إنا لانسجد إلا لله عز وجل » ، ثم ألقى جعفر خطبة أمام النجاشى فقال : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، يأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم . » ، وعدد عليه أمور الإسلام ثم قال :

« فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ماحرّم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا ألا نظلم عندك » .

وبعد الخطبة سأله النجاشي : « هل معك مماجاء به عن الله شيء ؟ » فتلا عليه جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي وأساقفته وقال لهم : « إن

هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة » ، ثم قال لعمرو وصاحبيه : « انطلقا فوالله لاأسلمهم لكما أبداً » .

ورأى عمرو أن المسلمين قد كسبوا الجولة ، وأن الفرصة ستفلت من يده ، فأعمل عقله بسرعة وهو عمرو المعروف بين العرب بأنه أدهى العرب جميعاً — ورأى أن يضرب ضربته ، فقال للنجاشى : « إنهم يخالفونك فى ابن مريم ولايقولون إنه ابن الله عز وجل وعلا » ، فسأل النجاشى : « ماتقولون فى ابن مريم وأمه ؟ » ، فقال جعفر « نقول كما قال الله عز وجل روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء » ، فقال النجاشى : « يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، مايزيدون على ماتقولون ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل » ، وتساءل النجاشى : « أنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيًّا مرسلا » ، فقال من عنده من الرهبان والقسيسين والأساقفة : « اللهم نعم ، قد بشرنا به عيسى ، قال من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر بى » ، فعند ذلك قال النجاشى : « والله لولا ماأنا فيه من الملك لأتيته فأكون أنا الذى أحمل نعله وأوضئه » ثم التفت إلى المسلمين وقال : « انزلوا حيث شئتم ، آمنون بأرضى ، ماأحب أن يكون لى ديراً من ذهب وأن أؤذى رجلاً منكم » ، ثم أمر لهم بمايصلحهم من الرزق وقال : « من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد عصانى » ، ثم أمر برد هدية عمرو وصاحبه قائلا : « ردّوا عليهم هداياهم فلاحاجة لى بها ، فوالله ماأخذ الله تعالى منى الرشوة حين ردّ على ملكى فآخذ الرشوة » (كان أبو النجاشى الحالى ملكا للحبشة ، وثار عليه الأحباش وقتلوه ، وولوا أخاه مكانه ، فنشأ النجاشى فى

حجر عمه وكان لعمه اثنا عشر ولداً لايصلح واحد منهم للملك ، فلما رأت الحبشة نجابة النجاشى خافوا إن تولّى عليهم يقتلهم بقتلهم أباه فطلبوا من عمه قتله ، ولكنه رفض وأخرجه وباعه ، ثم مرت صاعقة ومات عمه ، ووجدت الحبشة أنه لايصلح لها إلا النجاشى فعادوا به من عند الذى اشتراه ، وعقدوا له التاج وملّكوه عليه فسار فيهم سيرة حسنة) ، ولقد حمد الرسول عليه السلام للنجاشى حسن استضافته لأصحابه ، ويوم مات نعاه الرسول إلى أصحابه فقال عليه السلام : « مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة (اسم النجاشى) » ، وخرج بهم إلى المصلّى فصلّى عليه صلاة الغائب .

ولقد حدث خلال وجود المسلمين بالحبشة ، أن ارتد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانا قد هاجرا معاً ضمن من هاجر من بنى خزيمة ، ورفضت أم حبيبة أن تتبع زوجها وأن تترك دينها لأنه ترك دينه ، بل بقيت على دينها ، وأصرّت على إيمانها ، وظلت مسلمة مؤمنة صادقة الإسلام ، وقد قدر الحق تبارك وتعالى موقفها ، فكافأها بأن جعلها أمًّا للمؤمنين ، فنالت بذلك شرفاً كبيراً وعظيماً . ولاعجب فى أن تنال هذا التشريف فهى أولاً ابنة أبى سفيان ، زعيم قريش ، وخصم النبى العنيد ، وعدوه اللدود ، وإصرارها على الإسلام يعرضها لبطش أبيها وهو فحل قريش وكبيرها وسيدها المطاع ، وهى ثانياً ابنة هند عدوة الرسول الأولى ، ومخاصمته العنيدة ، التى كانت تؤلب عليه الناس ، وتنفرهم منه ، وإصرارها على دين محمد يعرضها لنقمة أمها ، وهى ثالثاً بعد أن ارتد زوجها ولم تلن إلى توسلاته فى طلب اللحاق به وثبتت على دينها ، بقيت فى الحبشة وحيدة غريبة

لاتدرى ماتصنع ، وتركت أمرها إلى الله وتوكلت عليه ، لهذا كله كفلتها السماء ورعتها وحمتها ، فرقّ لها قلب الرسول الكبير ، وقرر أن يتخذها زوجة له ، فكتب بهذا المعنى إلى النجاشى ليزوجه إياها ، ولما أبلغها النجاشى كادت تطير فرحاً واستبشاراً ، وسر خاطرها ، وأكرمها النجاشى ، وأحسن إليها وأصدقها عن النبى أربعمائة دينار مع هدايا نفيسة ، عن أم حبيبة قالت : « رأيت فى المنام وكأن عبيد الله بن جحش زوجى بأسوأ حال ، وتغيرت صورته فإذا هو يقول حين أصبح : ياأم حبيبة ، إنى نظرت فى هذا الدين ، فلم أر ديناً خيراً من دين النصرانية ، وقد كنت دنت بها ، ثم دخلت فى دين محمد ، ثم خرجت إلى دين النصرانية .

فقلت : والله ماخير لك » ، ثم أخبرته بما رأته له فلم يحفل بذلك وأكب على الخمر حتى مات » ، وعن أم حبيبة أيضا قالت : « رأيت فى المنام كأن آتياً يقول لى : ياأم المؤمنين ففزعت ، وأولتها بأن رسول الله ﷺ سيتزوجنى » .

٨ - باسمك اللهم

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ذات آثار بعيدة المدى داخل المجتمع المكى بكل طوائفه مسلمين ومشركين .

فالمسلمون الذين عاشوا فى رحاب النجاشى عاشوا آمنين مطمئنين ، وباشروا حياتهم فى هدوء وسكينة ، ومارسوا شعائرهم الدينية دون خوف .

والمسلمون فى مكة عاشوا مطمئنين على إخوانهم المهاجرين ، وظلوا على تمسكهم بدينهم وصمدوا أمام إيذاء قريش صموداً نابعاً من رسوخ عقيدتهم وعمق إيمانهم وتحديهم الواضح لمحاولات قريش لفتنتهم عن دينهم .

ورسول الله صابر على الإيذاء ، مستمر فى الدعوة معتمداً على الله ، مطمئناً إلى تأييده واثقاً من عونه ونصرته ، مدركاً أن قريشاً لن تناله بسوء بسبب حماية السماء له ، مؤمنا بأن كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ولهذا كله كان عدد الداخلين فى الإسلام يزيد كل يوم ، وقد تكون الزيادة محدودة وانتشار الإسلام ضئيلا ، ولكن هذا كان يؤكد أن الإسلام يسير فى طريقه ، ويبشر المسلمين ببلوغ الغاية ، وينذر المشركين بسوء العاقبة .

أما قريش فكانت تعيش فى جو يسوده الحزن والأسى والهم واضطراب الفكر ، وخاصة بعد أن عاد مبعوثاها خائبين ، ونقلا إليهم ما كان من إكرام

النجاشى للمسلمين ، لقد كانت تبغى محاربتهم فى كل موقع ، وأن تضيق عليهم الخناق فلايجدون مكاناً يلوذون به ، ويضطرون إلى العودة إلى بلادهم حيث ينتظرهم العذاب ، ويكون أمامهم أحد سبيلين ، فإما أن يرجعوا إلى دينهم الأول ويكفروا بمحمد وبدعوته ، وإما أن يُقْضى عليهم فيموتوا ، وبموتهم تُقْبر الدعوة الإسلامية وينتهى الأمر ، ولكن فشل المبعوثين جعل قريشاً فى دوامة من الفكر ، وكان وجود المسلمين المهاجرين فى الحبشة سالمين معافين أحراراً يثير فزعهم وخوفهم ، ويشيع فى مكة جوًّا من الخوف ، ويبلبل الأفكار ، ويزلزل القلوب ، فعاش الكفار حيارى لايدرون ماسوف يأتى به الغد ، فقد كانوا يرون فى بقاء المسلمين هناك خطراً جسيماً عليهم وعلى وجودهم وديانتهم ومستقبلهم ، وكانوا يرون أن وجود المسلمين فى الحبشة سيخلق لهم الجو الملائم الذى يملكون فيه القدرة على الدعاية لدينهم ودعوتهم ، وقد يتأثر أهل الحبشة بهذه الدعاية فترق قلوبهم للإسلام ويسلمون ، وتقوم فى بلدهم دولة إسلامية تحمل عبء الدعوة للدين والدفاع عنه ، وتصبح قوة تواجههم وتقضى عليهم ، وكانوا يخشون أيضاً أن تمتد هذه الدعاية إلى العرب المجاورين لهم فيستجيبون لها ويدخلون فى الإسلام ، ويصبحون حرباً عليهم وعلى دينهم ، ولم تقف موجة تفكيرهم عند هذا الحد ، بل كانوا يخشون أن يطعن هؤلاء فى أصنامهم ودينهم ، وأن يصيبوا آلهتهم فتضعف ثقة الناس سواء فى الحبشة ، أو فى الأمم ذات الاتصال بهم فى الأصنام فتنهار مكانتها فى نفوسهم .

ولو لم يحدث هذا أو ذاك فقد كرهوا أن تتزعزع مكانتهم فى نفوس الأحباش أو غيرهم ، فيؤثر ذلك على اتصالاتهم التجارية مع هذه البلاد ، وهم قوم

يعيشون على التجارة التى تمثل مركز الثقل فى اقتصادياتهم ومجتمعهم .

وفوق هذا كله فقد كانوا يرون فى استمرار المسلمين فى الحبشة مايزيدهم قوة فتشتد شوكتهم ويقوى بأسهم ، فإذا عادوا عادوا أقوياء بالمال والرجال ، ممايهن فى عزم قريش ، ويقوض مكانتها ومركزها بين سائر القبائل .

من خلال هذا التفكير رأت قريش أن تشتد فى عداوتها ، وأن تقاوم التيار الجديد ، وأن تأخذ المقاومة لوناً جديداً من العنف والقسوة والبطش ، فبالغت فى الإيذاء برغم أنها كانت تحس بالأرض تميد تحتها .

وشهدت مكة أحداثاً كان لها شأنها وأهميتها وخطرها .

أولا – أن أبا طالب دعا قومه بنى هاشم للبحث والتشاور فى موقف قريش منه ومن ابن أخيه ، وخاصة بعد مادار بينه وبين قريش فى هذا الشأن من لقاءات وعروض ، وبعد أن أصبح الموقف من وجهة نظره يتصل اتصالا وثيقاً بكرامتهم وعصبيتهم ومكانتهم ، واستقر رأى بنى هاشم جميعاً على أن يسندوا ابنهم ويذودوا عنه ويقفوا صفًّا واحداً من ورائه ، يحمونه ويدافعون عنه برغم أنهم ليسوا على دينه ، وقف بنوهاشم جميعاً يداً واحدة وسنداً قويًّا بجانب الرسول ماعدا عمه أبا لهب الذى خرج على إجماع قومه وشذّ عنهم وصمم على أن يواجه ابن أخيه بالشدّة حتى يثوب إلى رشده ، واستمر فعلا على عداوته للرسول وموالاته لأعدائه ، لاتحركه مروءة ولاشفقة على ابن أخيه ، ولعله كان متأثراً إلى حد مابموقف زوجته .

وسعد أبو طالب بموقف قومه ، وسرّه إجماعهم ، فجعل يمدحهم ويذكر ماضيهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانته منهم ، وقال فى ذلك شعراً منه :

إذا اجتمعت يوماً قريش لفخر ... فعبد مناف سِرُّها وصميمها
وإن حُصِّلت أشراف عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وان فخرت يوماً فإنّ محمداً ... هو المصطفى من سرّها وكريمُها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر ، وطاشت حلومها
وكنا قديماً لانقِرُّ ظُلامةً ... إذا ماثنوا صُعْر الخُدود نُقيمها
ونحمى حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يَرومها
بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندَى وتنْمى أرومُها

وأصبح الموقف فى مكة خطيراً ، فقريش فى جانب ، وبنو هاشم فى الجانب الآخر ، ووضحت العداوة بين الطرفين ، طرف يدافع عن كيانه ووجوده ودينه ، وطرف يدافع عن كرامته وشرفه وابنهم ، وكل طرف متمسك برأيه متعنت فى موقفه .

ولاشك فى أن هذا الموقف كان فى صالح رسول الله وفى صالح الدعوة والداخلين فيها ، فقد وجدوا بجانبهم قوة جديدة تسند وتحمى وتدافع وتصد ، ومن خلال هذا الموقف أصبحت الدعوة الإسلامية موضع الحديث والنقاش ، ووُضعت مبادئ الدين الجديد أمام أنظار الناس وبين أيديهم ، يرون فيها رأيهم ، وكان لابد من أن تجد الدعوة من يقتنع قلبه وعقله وفكره فيسلم ويصبح قوة جديدة .

وكان اشتداد الإيذاء والاستهزاء بالمسلمين والاستخفاف بالعبادة دافعاً لوقوع الحدث الثانى ، فقد التقى أبو جهل برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه

وشتمه ونال منه مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، وأسمعه فاحش القول حتى شفى غليل صدره ، ورسول الله يعرض عنه لايرده ولايصده ولايكلمه ، إلا أن مولاة لعبد الله بن جدعان سمعت مادار وشاهدت الاعتداء ، فلما رأت حمزة عم النبي مقبلا من قنص له متوشحاً سيفه ، قالت له : « ياأبا عمارة لو رأيت مالقى ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ، وجده هاهنا جالساً ، فآذاه وسبه ، وبلغ منه مايكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد » ، فغضب حمزة لما سمع وأخذته الحمية لابن أخيه ، فقصد من فوره المسجد حيث كان أبو جهل جالساً فى القوم ، فاتجه نحوه حتى إذا قام على رأسه ضربه بالقوس ، فشجّه شجّة منكرة وقال له : « أتشتمه وأنا على دينه ، أقول مايقول ؟ ، فرد ذلك عليّ إن استطعت » ، ولم يرد عليه أبو جهل ، فقد اعترف بأنه قد سبّ محمداً سبًّا قبيحاً ، وأسلم حمزة وأصبح واحداً من هؤلاء الذين يواجهون قريشاً ، وهو أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة ، وهو بطل يحسب حسابه ويُخشى بأسه ، وكانت غضبته على أبي جهل خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين .

والتقى حمزة برسول الله فقال له : « أشهد أنك الصادق ، فأظهر يابن أخى دينك ، فوالله ماأحب أن لى ماأظلته السماء وإنى على دينى الأول » ، وهكذا فقدت قريش واحداً كان يدين بدينهم ، واكتسب المسلمون رجلا ذا شجاعة وبأس وقوة ، عاهدهم على النصرة والتضحية فى سبيل الله[1] .

(١) لم يرد فى كتب السيرة تاريخ إسلام حمزة ، وذكر البعض أنه كان قريباً من إسلام عمر ، أى أن إسلام عمر كان بعده بقليل ، وإسلام عمر كان فى السنة السادسة من البعثة لأنه كان بعد الهجرة إلى الحبشة .

أما الحدث الثالث فكان إسلام عمر بن الخطاب وقد كانت الهجرة إلى الحبشة سبباً مباشراً لإسلامه ، فعمر كان شديداً على المسلمين لايجد سبيلا إلى إيذائهم إلا سلكه ، ولكن كان فى طبيعته إدراك صحيح إن ضل أرشده ، وفيه طبع رحيم إن قسا ، فالقسوة كانت تؤذيه كما تؤذى من نزلت به .

كان عمر شديد الأذى والبطش بالمسلمين والغلظة عليهم ، وكان يضمر للرسول وللإسلام عداوة فيها عنف ، ولكنه كان رقيقاً فوار العاطفة ، ولقد أثرت فيه هجرة المسلمين إلى الحبشة ، وعز عليه أن يرى نفراً من قومه يخرجون من بلدهم حيث لا أمان ولا استقرار إلى أرض أخرى بحثاً عن هذا الأمان والاستقرار ، ولاعجب أن يتملكه هذا الشعور بالأسى والألم والضيق ، فقد عُرف عنه أنه ذو نفس حساسة وعاطفة مرهفة .

وكانت مكة قد سادها جو كئيب من الوحشة بعد أن غادرها من غادرها من المهاجرين ، وتركوا فراغاً هائلا أحس به عمر إحساساً قويًّا عميقا ، وتولته حالة من القلق والضيق وانقباض الصدر ، وأصبح قومه لايرونه إلا منقبضاً حزيناً .

حدّثت أم عبد الله بنت أبى خثعمة زوجة عامر بن ربيعة فقالت : إنا لنرحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته ، إذ أقبل عمر وهو على شِرْكه ، حتى وقف عليّ ، وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدّة ، فقال : أتنطلقون ياأم عبد الله ؟ قلت : نعم والله لنخرجن فى أرض الله ، فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجاً ، فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة وحزناً » .

وغضب عمر ، ولكن غضبه كان منصبًّا على رسول الله ، لأنه من وجهة

نظره هو الذى فرّق أمر قريش وعاب دينها ، وكان سبب هذا البلاء ، فعزم على أن يقتله ، حتى يستريح الناس منه ، وخرج يوماً متوشحاً سيفه ، باحثاً عن رسول الله ليقتله ، فلقيه نُعَيم بن عبد الله وسأله : « أين تريد ياعمر ؟ » ، فقال : « أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها ، وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله » ، فقال له نعيم : « والله لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرها ، ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب قد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما » .

وهكذا تدخلت السماء ، وبدأ عمر السير فى طريق الهداية .

اتجه عمر إلى بيت أخته ، وهناك وجدها وزوجها ومعهما خبّاب بن الأرت ، ومعه صحيفة فيها سورة (طه) يُقْرِئها إياها ، فبطش بختنه سعيد بن زيد ، وضرب أخته فاطمة فشجّها ، واعترفت له أخته : « نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع مابدا لك » ، وشاهد عمر الدم يسيل من وجه أخته ، فتحركت العاطفة الرقيقة التى تملأ قلبه وطردت منه الشدّة والغلظة ، ورقّ حتى كان كالماء بعد أن كان هائجاً كالعاصفة وإذا به يطلب من أخته « أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون أنظر ماهذا الذى جاء به محمد » ، وكان عمر يخطو خطوات واثقة على طريق الإيمان ، وكان اطلاعه على الصحيفة هو الخطوة الأولى الجادة التى لحقت بها على الفور خطوات أخرى قادته إلى حيث رسول الله ، لا ليقتله كما كان معتزماً ولكن ليعلن إسلامه ، وليدخل فى

الدين الجديد ، وليكون عضداً وسنداً وقوة للإسلام والمسلمين ، وحرباً على قريش وعداوة لأشرافها .

خرج إليه خباب وكان مختبئاً منذ لحظة دخول عمر البيت ، وقال له : ياعمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته بالأمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » ، وغادر عمر بيت أخته إلى الصفا حيث رسول الله فدخل عليه وقال : « يا رسول جئت لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله » ، وهكذا أزال الحق عن عمر غشاوة الباطل ، واستجابت السماء لدعاء رسول الله .

ولم تصدق قريش نبأ إسلام عمر ، إلا حين سار جميل بن معمر بالنبأ يعلنه على الناس فى الأندية وفى مجالس قريش : « يامعشر قريش ، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ » ، وعمر من خلفه يقول : « كذب ، ولكنى قد أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ثم توجه عمر إلى منزل خاله أبى جهل وهو يعلم عداوته لرسول الله ، وأخبره بإسلامه ، فانزعج من هول ماسمع ، بضرب الباب فى وجهه وهو يقول : « قبّحك الله ، وقبح ماجئت به » .

وكان المسلمون حتى لحظة إسلام عمر يؤدون صلاتهم فى الشعاب ، ولكن عمر أصرّ بعد إسلامه على أن تُؤدى الصلاة فى الكعبة تحت سمع القوم وبصرهم ، ووافق المسلمون وأفقد ذلك قريشاً هدوءها واتزانها ووقارها ، قال عبد الله بن مسعود : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، ولقد كنا نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ،

ومازلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب » ، وبإسلام عمر تفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ، وأنهم سينتصفون بهما من عدوهم ، وكان إسلام حمزة ومن بعده إسلام عمر ابتداء عهد جديد للإسلام ، فقد كان المسلمون مستضعفين يُرْمَون بالسوء ولايدفعون السيئة بمثلها ، ولايستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ، ولايرقب فيهم أعداؤهم ذماماً ، ولا مراعاة لحسن جوار أو لمودة أو لقربى ، بل كانوا يسومونهم العذاب.ويريدونهم على الهوان ، من غير أن يتوقعوا دفعاً ، فلما أسلم حمزة ثم عمر ، حلّت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان عهد الاعتزاز بالإسلام ، واستعلائه بعد استخفافه ، ووقوف المسلمين صفوفاً مجتمعين بعد أن كانوا فرادى متفرقين ، وخرج المسلمون صفين فى مقدمة الأول حمزة ، وفى مقدمة الثانى عمر ، واتجهوا إلى الكعبة يصلون فيها مجتمعين ، وتحدوا بجموعهم قريشاً أن تمنعهم ، وهى عاجزة عن قبول التحدى.

وأصبح المستقبل غامضاً أمام قريش.

والمسلمون أصبحوا قوة ، وهاهو ذا عمر يقول : « مابقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هياب ولاخائف » ، وهاهم أولاء يخرجون إلى الكعبة يؤدون صلاتهم ، ويجاهرون بالعبادة ، وصوت الحق يرن فى جوف المسجد الحرام ، ويمتد صداه ليعم مكة كلها.

لقد آذى الكفار المسلمين فثبتوا ، وتهكموا بهم فما نالوا ، وكلما ازدادوا إيذاء وتهكماً سرى الإيمان فى القلوب ، وهاهو ذا النضر بن الحارث يخاطب قريشاً فيقول : « يامعشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ماأتيتم له بحيلة بعد ، فقد

كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر والله ماهو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر لا والله ماهو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون لا والله ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فماهو بخنقه ولاوسوسته ولاتخليطه ، يامعشر قريش انظروا فى شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم » .

واجتمعت قريش لتفكر فى عمل يحفظ لها شرفها وسلطانها ومكانتها ، وانتهى بهم التفكير إلى قتل رسول الله غير مبالين بأبى طالب وبنى هاشم ، وبلغ الأمر أبا طالب فنادى قومه بنى عبد مناف أن يناصروه فى منع النبى وحمايته ، فأجابه بنو المطلب ، وبنو هاشم ، واجتمع على ذلك حسب رواية الزهرى مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعل ذلك حمية ، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً ، فلما عرفت قريش غيّرت خطتها واستبعدت فكرة القتل ، فماذا إذن قررت ؟

قال ابن إسحاق : « فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل الإسلام يغشو فى القبائل ، واجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولاينكحوهم ، ولايبيعوهم شيئاً ولايبتاعون منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على

أنفسهم ، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنوهاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه ، واجتمعوا إليه وخرج من بنى هاشم أبو لهب عبد العزى ابن عبد المطلب إلى قريش فظاهرها » .

وخرج بنوهاشم مع محمد وأصحابه إلى شعبهم ، حيث قضوا ثلاث سنوات ، عانوا فيها الكثير واشتد بهم البلاء ، وأضناهم الجهد ، ولكنهم أبوا فى هذا الموقف الذى تعرف فيه معادن الرجال أن يُعْطَوا الدنيّة ، فتحملوا وصبروا بشجاعة وإباء ، أملا فى أن يأتيهم الله بالفرج القريب .

ورب ضارة نافعة ، فالعرب الوافدون على مكة فى موسم الحج ، سمعوا بأمر المقاطعة وأخذوا يتساءلون عن هذه الدعوة التى أفقدت قريشاً اتزانها ووقارها ، وألجأتها إلى أن تفرض عقوبة قاسية عنيفة على بنى أبيها ، وأدركوا على الفور أن فى هذه الدعوة شيئاً خطيراً تخشاه قريش وتحسب حسابه ، فأخذوا يتتبعون أخبارها ، ويتسقطون أنباءها ويلمون بمناهجها ، ويسألون عن مبادئها ، ويقفون على أصولها وأهدافها ، وقد أدى هذا إلى ذيوع الدعوة بين العرب ، وهكذا تأتى الرياح بمالاتشتهى السفن ، فحين أرادت قريش أن تخفى الدعوة حتى ينساها الناس ، انطلقت أنباؤها من مكة إلى خارجها تدوِّى فى أسماع الناس وآذانهم ، فى البدو وفى الحضر .

ظلت المقاطعة ثلاث سنوات متتابعة ، عاشها محمد وأهله وأصحابه فى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة ، يعانون الحرمان ألواناً ، ولم يكن لأحدهم أن يتصل بالناس ، وأن يجتمع بهم وأن يتحدث إليهم إلا فى الأشهر الحرم ، ففيها تضع الخصومة أوزارها ، فلاقتل ولاتعذيب ولاعدوان ولا انتقام ، وإذا

كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول وأهله وأصحابه أسباب العيش ، وضيقت عليهم فى الرزق ، فإنها لم تمنعه عن دعوته ، ولم تحجبه عن رسالته ، فاستمر فى دعوته والله تبارك وتعالى يمده بالعون والتأييد ، فهو وإن كان فى وحشة من قومه فهو فى أنس من ربه .

وفى الأشهر الحرم كان رسول الله ﷺ ينزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم عذابه ، ومن عجب أن الناس كانوا يلتفون حوله ويستمعون إليه دون خوف من قريش ، وقد أثار مايتعرض له من حصار وحرمان عواطفهم ومشاعرهم ، فمالت إليه قلوب الكثيرين حين شعروا بفداحة مايرتكب من ظلم وقسوة فى حق محمد وأصحابه ، فتعاطفوا معهم وحملوا الطعام إليهم فى الشعب ، فكان هشام بن عمرو يأتى بالبعير يحمل الطعام فيسير به فى جوف الليل فإذا استقبل فم الشعب خلع خطامه وضرب على جنبه فيدخل البعير الشعب ، ولقى أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى عمته خديجة فى الشعب فمنعه واعترضه وقال : « أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ، والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » وانحاز أبو البخترى إلى جانب حكيم ، ومنعها أبو جهل ، فأخذ لحى بعير فضربه به فشجّه ووطأه وطئا شديداً .

وحدث خلال الحصار أن أبلغ رسول الله ﷺ عمه أبان طالب أن الله قد سلط على صحيفة قريش الأرضة فأزالت كل مابها من جور وظلم وقطيعة رحم ، ولم تبق فيها سوى كل ماذكر به الله ، وخرج أبو طالب بهذه المعلومة إلى قريش ، وقال لهم ماأخبره به ابن أخيه ، وأردف « فإن كان ابن أخى صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذباً والذى قاله باطلا دفعته إليكم فقتلتموه

أو استحييتموه » ، فأسعدهم هذا العرض ، وتوقعوا أن يكون ماقاله محمد لعمه باطلا ، فيسلمه لهم فينتهي أمر دعوته وقالوا : « رضينا بالذى تقول » ، وجاءوا بالصحيفة فوجدوها كما قال الصادق الأمين ، فنكثوا وقالوا مقالة الكفر : « إن هذا إلا سحر من صاحبكم » ، وقالوا لأبي طالب « هذا سحر ابن أخيك » ، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً ،

وجاء يوم كان فيه الخلاص والفرج على يد هشام بن عمرو .

فقد خرج هشام إلى زهير بن أمية (أمه عاتكة بنت عبد المطلب) ، وقال له : « أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت لايبتاعون ولايبتاع منهم ولاينكحون ولاينكح إليهم ، أما وإني أحلف بالله لوكانوا أخوال أبي الحكم بن هشام (أبي جهل) ، ثم دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم فما أجابك إليه أبداً » .

ومشى هشام إلى المطعم بن عدى وقال له : « يامطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق قريش فيه ، أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنهم إليها منكم سراعاً » .

ثم اتجه إلى أبي البخترى بن هشام ، ومن بعده إلى زمعة بن الأسود وقال لهما ماقاله للمطعم بن عدى .

واجتمع الخمسة الكرام وتعاقدوا على الدعوة إلى نقض الصحيفة ، واتجهوا معاً إلى الكعبة حيث خاطب زهير الناس فقال : « ياأهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايبتاعون ولايبتاع منهم ، والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » ، فقاطعه أبو جهل : « والله لاتشق » .

فقال زمعة بن الأسود : « أنت والله أكذب ، مارضينا كتابتها حين كتبت » ، ثم وقف البختري وقال : « صدق زمعة مانرضى بما كتب فيها ولانقر به » ، ثم أيدهما المطعم فقال : « صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وماكُتب فيها » وهاج أبو جهل وقال : « هذا أمر قد قضى بليل ، تشاوروا فيه بغير هذا المكان » ، واضطرب الأمر وكثر القيل والقال ، وقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » ، وحمل الرجال الخمسة ومعهم آخرون السلاح وخرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب وأمروهم بالعودة إلى مساكنهم ، وقال ابن سعد فى الطبقات : « فلما رأت قريش ذلك سقط فى أيديهم »

كانت فترة الحصار والمقاطعة منبعاً من منابع الخير للدعوة ، فإن الظلم الذى صبته قريش على رسول الله وقومه قد أمال قلوب العرب إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، لأنهم صبروا للمحنة صبر الكرام ، واحتملوا كل ماعانوا من عنت وظلم دون أن يسلموا رسول الله إلى أعدائه ، كما لفت أنظارهم إلى هذه الدعوة التى يلاقى محمد وأصحابه فى سبيلها كل هذا العناء ، دون أن يتخلوا عنها أو يتركوها ، وكأن الله قد أراد أن يكون كل ضرر يقع على المسلمين مصدر خير لهم وللدعوة ، ومصدر خسارة لقريش والكافرين .

وفى مكة عاد رسول الله يدعو إلى الدين الجديد ومن حوله أصحابه الميامين . وسارت القافلة على الطريق لايعوقها عائق ، ولايردها راد ، يحيط بها إيمان عميق وعقيدة راسخة وأمل كبير فى نصر الله .

٩ – وجاءت النصرة من السماء

لم تمض شهور على نقض الصحيفة وعودة بنى هاشم والمطلب إلى مكة ، حتى نكب رسول الله والذين معه فى عام واحد وفى وقت متقارب بموت أبى طالب وخديجة ، وكان موتهما نكبة أشد ماتكون النكبة ، فهزت مشاعر الجميع بقسوة وعنف ، وتركت أقوى النفوس كليمة مضعضعة .

مات النصيران اللذان وهبا حياتهما دفاعاً عن محمد رسول الله وأصحابه الذين دخلوا فى دينه ، وظلا بجانبه كالطود الشامخ لم تؤثر فيهما تهديدات قريش ، وبقيا كالسد المنيع تحطمت أمامه كل محاولات قريش ، فأبو طالب أظل رسول الله عليه السلام بحمايته ، وواجه القوة المضادة صلباً صلداً لايلين ولايهن ، نصر ابن أخيه وذاد عنه ، وتحمل الأذى فى سبيل مرضاته ، وصبر على مضايقة قريش له ، ورضى الملامة من أجل أن يعطى ابن أخيه الحماية ، برغم أنه لم يكن على دينه ولم يستجب لدعوته ، وهو القائل لرسول الله يوم دعاه وقومه إلى وليمة حدّثهم خلالها عن رسالته ودينه الجديد ، ثم سألهم : « فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ، ويؤازرنى على القيام به ؟ ، هو القائل : « ماأحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشدنا تصديقاً لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ماتحب ، فامض لما أمرت

به ، فوالله لاأزال أحوطك وأمنعك » .

كان موت أبي طالب مصيبة ، فقد انكشف بموته ظهر رسول الله ويقول عليه السلام فى ذلك » مانالت منى قريش فى حياة أبي طالب مانالته بعده » لقد ترك موت أبي طالب ورحيله فراغاً لم يملأه أحد من بنى هاشم ، وروى أن عاطفة أبي لهب تحركت نحو ابن أخيه فقال له : « يامحمد ، امض لما أردت وماكنت صانعاً إذكان أبو طالب حيًّا فاصنعه ، فلا - واللات - لايصل إليك شيء حتى أموت » ، ولكن هذه العاطفة مالبثت أن خمدت وراحت وانطفأت ، وعاد أبو لهب - كما كان دائماً - عدوًّا لله وعدوًّا لرسوله ، وبذلك خلا الجو لقريش إذ لم تعد تجد من تحسب حسابه أو تخشى غضبه .

وكان موت خديجة مصيبة أيضاً ، فقد كانت سند رسول الله بماتوليه من حبها وبرها ورقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها ، كانت الزوجة الحانية وملاك الرحمة والسكن إذا ادلهمت الأمور ، كان رسول الله يلقى من قريش مايلقاه ثم يعود إلى بيته فيجد الزوجة التى تمسح بأيدى العطف والحب والحنان كل مظاهر الجهد والحزن والأسى ، وتردد على مسامعه دائماً : « والله ، لا يخزيك الله أبداً » ، فتخفف بطيب قولها وعذب حديثها وكريم مواساتها ، ماكان يعانيه من قلق نفسى ، لقد تركت فى حياة الرسول فراغاً - وأى فراغ - وغدا البيت بموتها موحشاً لاأنيس به ولاسمير ، ولم يعد الرسول يجد به القلب الكبير الذى كان يأتيه بهمومه فيزيلها ، ويشكو إليه فيخفف عنه آلام الشكوى ، لقد فقد الرسول بفقدها العقل الراجح الذى كان وزيره الصادق فى الشدّة والرخاء ، وعونه الرءوف على السراء والضراء ، وأشار عليه الصلاة والسلام إلى صدق دورها

فقال : « قد آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وآستنى بمالها إذ حرمنى الناس » .

روت كتب السيرة أنه حين دهم المرض أبا طالب ، قالت قريش بعضها لبعض : « إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منا ، فإنا والله مانأمن أن يبتزونا (يسلبونا) أمرنا ، نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء (أى يقتلون الرسول) ، فتعيرنا العرب ، ويقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه » ، ومشى أشرافهم وفيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان ، إلى أبى طالب وهو على فراش مرضه ، وقالوا له : « يا أبا طالب ، أنت منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ماترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه ، وخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه » ، ودُعِىَ رسول الله إلى حيث عمه والقوم ، وقال له عمه : « يابن أخى ، هؤلاء شيخة قومك وسراتهم ، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال الرسول : « أرأيتكم إن أعطيتكم ماسألتم هل تعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : « نعم وأبيك وعشر كلمات » ، فقال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ماتعبدون من دونه » ، فسألوه كلمة غيرها ، فقال : « لوجئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ماسألتكم غيرها » ، وتعجب القوم ودهشوا ، فقد خاب أملهم ، وقال بعضهم لبعض : « إنه والله ماهذا الرجل بمعطيكم شيئا مماتريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين

آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه » .

ومات أبو طالب .

وماتت خديجة .

وفقد الرسول بهما الحامى والسند ..

وسعدت قريش بموتهما ، فقد خلا أمامهم الجو ، وبدأت موجة عاتية من الإرهاب والتعذيب ، قال ابن سعد : « لما توفى أبو طالب وخديجة بنت خويلد وكان بينهما شهر وخمسة أيام ، اجتمعت على رسول الله مصيبتان فلزم بيته ، وأقلّ الخروج ونالت منه قريش مالم تكن تنال ولاتطمع به » .

واشتدت قريش على رسول الله ﷺ ، ونالت منه الكثير ، كانوا يحثون التراب على رأسه ، فتزيله بعض بناته وهى تبكى فيقول لها : « يابنية لاتبكى فإن الله مانع أباك » ، وكان عليه السلام يردد : « مانالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » ، وكان عليه السلام يناجى عمه ويقول : « ماأسرع ماوجدت فقدك » .

وكان لابد لرسول الله من أن يبحث عن حليف جديد يقف إلى جانبه ويحميه ويرد عنه وعن أصحابه ، فقد بلغ الأمر من الشدّة والضيق مداه فى نفسه عليه السلام ثقيلا خانقاً ، وأراد عليه السلام أن يلتمس له متنفساً خارج مكة ، لعله يجد أعواناً على الحق وأنصاراً للخير ، يستمعون له ويستجيبون لدعوته .

ورأى عليه السلام أن يلجأ إلى الطائف بحثاً عن هذا الحليف الجديد الذى ينشده عند ثقيف ، لعلها أن تستجيب إليه وتؤمن به وتمنحه المنعة ، فثقيف لها

من القوة والسلطان والثروة من الثمار والتجارة مايؤهلها للقيام بهذا الدور ، وثقيف فوق هذا لها معه عليه السلام صلات رحم ، فقد استرضع عليه السلام فى بادية بنى سعد ، وهى جزء من بادية الطائف ، وأهل الطائف يعتبرون أخواله من الرضاعة ، فهم بذلك أقرب القبائل رحماً إليه بعد قريش .

ولكن ما كل مايتمنى المرء يدركه .

ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يطلب النصير ، وعاد منها بشر جواب ، لقد خاب ظنه وضاع أمله ، وذلك أن ثقيفاً كانت ترتبط بقريش بصلات من المودة والمنفعة المتبادلة ، وخاصة أنها مصيف أهل مكة لجمال جوها وحلو أعنابها ، ولهذا فقد حرصت ثقيف أن تظل صلاتها مع قريش قائمة ، وكذلك حرصت على رضا قريش ، ومن هنا أغلقت الباب فى وجه الوافد إليها من مكة .

ومن زاوية أخرى فإن ثقيفاً كانت على علم تام بما كان بين محمد وقريش ، فقد وصلتها أخبار الدعوة وموقف قريش ، وكانت تدرك أن قريشاً بموقفها من محمد تدافع عن أصنامها ، وبالتالى فإن ثقيفاً خشيت أن تتأثر منزلة اللات – وهو صنمها الذى تعبده وتعظمه – بالدعوة إلى الإسلام ، ومن هنا أساءت لقاءه .

لم تستجب ثقيف لدعوة الرسول ، ورفضت بقاءه بينها ، وطالبته بمغادرة أرضها ، فيئس الرسول من خيرهم .

لقى رسول الله حين وصل الطائف ثلاثة إخوة من أشراف ثقيف هم أبناء عمرو بن عمير بن عوف (عبد ياليل ومسعود وحبيب) ، وعرض عليهم

دعوته ، وطلب منهم العون والتأييد ، فأساء الثلاثة استقباله ، وردوا عليه فى استهزاء وسخرية ، قال أولهم للرسول ﷺ : « ماوجد الله أحداً يرسله غيرك » ، وقال الثانى : « والله لاأكلمك أبداً ، إن كنت رسولا كماتقول فأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك ، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغى أن أكلمك » ، أما الثالث فقد قال : « إنه يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسله » .

وأدرك رسول الله ﷺ أنه لاأمل فى ثقيف ، وخشى أن يبلغ قومه فشله لديهم ، فيشتدوا عليه ، فسألهم أن يكتموا عليه ولايفشوا ماكان بينه وبينهم « اكتموا علىّ ، ولكنهم كانوا قساة غلاظاً فلم يستجيبوا له وقالوا : « اخرج من بلدنا ، والحق بماشئت من الأرض ، فإنّا نخاف على أحداثنا وضعفائنا أن تفتنهم » .

وكما لم تكن ثقيف كريمة فى استقباله عليه السلام ، لم تكن أيضاً كريمة عند خروجه ، فقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وأخذوا يرشقونه بالحجارة حتى دميت رجلاه وتخضبت نعلاه بالدماء ، وكان ﷺ إذا أزلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ، ولم يكن معه عليه السلام سوى زيد بن حارثة فجعل يقيه بنفسه حتى شج فى رأسه ، وظل السفهاء يتعقبونه وزيداً حتى احتمى منهم بحائط (بستان) لرجلين من قريش هما عتبة وشيبة ابنى ربيعة.فى هذا المكان والرسول عليه السلام منفرد بنفسه ، وقد جفاه الأهل والعشيرة وأنكروه ، لم يجد أمامه ملجأ يلجأ إليه إلا ربه الذى اصطفاه وكلفه

بالرسالة وأمره بإبلاغ الناس بها ، واقتنع عليه السلام بأنه إذا كان الناس قد تخلوا عنه وأداروا له ظهورهم ، وحرموه الحماية والعون ، فإن ربه تبارك وتعالى لن يتخلى عنه ، وأن الحق وحده قادر على أن يجعل له من هذه الشدّة التى يعانيها مخرجاً ، ومن هذه المعاناة التى يعيشها فرجاً ، فتطلع إلى السماء بكل الإيمان والصدق واليقين والثقة ، واتجه إلى ربه بكل الأمل والرجاء والخشوع ، ورفع يديه بالدعاء : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولاحول ولاقوة إلا بك » .

وأراد الله تبارك وتعالى أن يخفف عن رسوله عليه السلام ماهو فيه من كرب وهم ، فحرك عاطفة الرحم فى ابنى ربيعة صاحبى الحائط الذى لجأ إليه الرسول ، فأشفقا عليه مما أصابه من الإعياء والهوان ، فبعثا إليه بغلام لهما نصرانى يدعى عداس حاملا معه قطفاً من العنب ، فلما قدمه الغلام قال رسول الله ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال الغلام : « والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد » ، فسأله رسول الله عن بلده ، فقال : « نصرانى من أهل نينوى » ، فقال الرسول : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى » ، فسأله الغلام » ومايدريك مايونس بن متى ؟ ، والله لقد خرجت من نينوى ومافيها عشرة يعرفون ابن متى ، فمتى عرفت ابن متى وأنت أمّى ومن أمة

أمية ؟ » ، فأجابه الرسول : « ذلك أخي كان نبيًّا وأنا نبي » ، وفي رواية : « أنا رسول الله ، والله أخبرني خبره ، وماوقع له مع قومه » ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، وشاهده ابنا ربيعة وهو يفعل ذلك ، فلما عاد قالا له : « ويلك ياعداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه » ، قال لهما : « مافي الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر لايعلمه إلا نبي » .

ويعلق المرحوم مصطفى صادق الرافعي على هذا الموقف في « وحي القلم » بقوله : « ياعجباً لرموز القدر في هذه القصة ! ! لقد أسرع الخير والكرامة والإجلال فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة ، وكان ابنا ربيعة من أعدى أعداء الإسلام ، وممن مشوا إلى أبي طالب عم النبي يسألونه أن يكفه عنهم أو يخلي بينهم وبينه أو ينازلوه حتى يهلك أحد الطرفين ، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنساني الذي جاء به الدين ، لأن المستقبل الديني للفكر لا للغريزة ، وجاءت النصرانية في أصالتها تعانق الإسلام وتعزه ، إن الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الأخوة الدم ، ونسب الأديان العقل ، ثم أتم القدر رمزه في هذه القصة بقطف العنب سائغاً عذباً مملوءا حلاوة ، فباسم الله كان قطف العنب رمزاً لهذا العنقود الإسلامي العظيم الذي امتلأ حبًّا ، كل حبة فيه قطرة من الأقطار » .

وفي طريق العودة إلى مكة نزل رسول الله ﷺ بنخلة ، فسأله زيد : « كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك ، وخرجت تستنصر فلم تنصر؟ ،

فقال : « يازيد ، إن الله جاعل لماترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه ، ولما اقترب من مكة بعث رسول الله يطلب جوار الأخنس بن شريق فرفض » أنا حليف ، والحليف لايجير » ، وجوار سهيل بن عمرو فرفض « إن بنى عامر لاتجير على بنى كعب » ، وجوار المطعم بن عدى » ، إنى داخل مكة فى جوارك » ، فوافق ودخل رسول الله مكة وتسلح ابن عدى وأهل بيته ، ودخلوا معه عليه السلام الكعبة وقال المطعم : « يامعشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً ، فلا يؤذه أحد منكم » ، وطاف عليه السلام بالبيت وصلّى عنده .

واستمر رسول الله ﷺ فى دعوة القبائل إلى الدين الجديد ، فكان يعرض نفسه عليهم فى المواسم ، ويدعوهم إلى الحق ، وكان عمه أبو لهب يتبعه أينما ذهب ويحرض الناس ألا يستمعوا إليه ، عن جابر بن عبد الله قال : « رأيت رسول الله ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة يطوف على الناس يقول : أيها الناس ، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً ، ووراءه رجل يقول : « أيها الناس ، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت : من هذا الرجل ؟ فقيل : أبو لهب » ، وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : «كان رسول الله ﷺ يكلم شريف كل قوم ، لايسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه ، ويقول : لاأُكْرِه أحداً منكم على شىء ، من رضى منكم بالذى أدعو إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه ، وإنما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بماء شاء ، فلم يقبله أحد منهم ، وقالوا جميعا : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه » .

لم يقنع الرسول بعرض نفسه على القبائل فى مواسم الحج ، بل أتى كندة فى منازلها وكلباً فى منازلها ، وبنى حنيفة فى منازلها ، وبنى عامر بن صعصعة فى منازلها ، وردّوه جميعاً ردًّا غير جميل ، وخاصة بنو حنيفة فقد ردّوه ردًّا قبيحاً ، أما بنو عامر فقد اشترطوا إذا هو انتصر بهم أن يكون لهم الأمر من بعده ، فرفض عليه السلام وقال لهم : « إن الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » ، وصدق رسول الله فالأمر كله لله ، والله تعالى وحده يملك القوة والقدرة ، وتخضع لمشيئته تعالى كل الأمور ، فإذا شاءت إرادته شيئاً كان .

بعد هذه الرحلة الطويلة التى اتسمت بصبر الرسول الجميل على الدعوة ، ومحاولاته المتصلة الجادة لعرض أمرها على الناس ، وحثه إياهم على قبولها ، وبعد هذه النتيجة التى بلغتها جهوده عليه السلام ، يكون ﷺ قد استنفد كل أسباب البشر ، ولم يعد أمامه إلا أن يلجأ إلى الله ، يطلب منه النصر ، ويلتمس العون ، ويرجو الحماية ، فالله تعالى لن يضيع عبده ورسوله ، وقد سُدّت أمامه الطرق ، ودعاء الرسول لربه عند حائط ابنى ربيعة دعاء فيه مقومات الإيمان واليقين بأن الله الذى أرسله لن يغفله ، وهو دعاء يؤكد بكل الصدق أن رسول الله قد استنفد كل أسباب البشر ، لأنه لم يجد أينما توجه إلا عدوًّا ، ومادام رسول الله قد استنفد كل أسباب البشر ، فلابد من أن تتدخل السماء ، وسمع الله ضراعته ، وأراد أن يؤكد له أنه إذا كان قد أحس بالوحشة بعد وفاة الحبيبين خديجة العطوف ، وأبى طالب الشفيق ، وبعد أن خذله الناس وابتعدوا عنه ، فإن أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، ورعايته أكرم ، وعنايته به وبرسالته هى التى ستبلغه أمره وتحقق له غايته ، وأرادت السماء أن تؤكد

للرسول أن جفاء الأرض لايعنى أن السماء قد تخلت عنه ، فكانت رحلة الإسراء والمعراج تعويضاً عن جفاء الأرض بحفاوة السماء ، وجفاء عالم الناس بحفاوة عالم الملأ الأعلى ، حيث يجد من آيات الله ومن قدراته ومن أسراره ، مايعطيه طاقة وشحنة ، بأن الله قادر على أن ينصره . ولايمكن أن يتخلى عنه ، والثابت إذن أن الله تبارك وتعالى ترك رسوله عليه السلام أولا للأسباب ليجتهد فيها ، فلما نفدت الأسباب تدخلت قدرة الله ، وهذا درس وعبرة للناس -- كل الناس – حتى لايدعوا الأسباب ، ويتركوا السعى والجد ، ويرفعوا أيديهم إلى السماء يطلبون العون والتأييد والفضل ، فى أمور لم يبذلوا فى سبيلها ولم يسعوا لتحقيقها [1] .

وحدث الإسراء والمعراج كان نتيجة لجفوة أهل الأرض لرسول الله ، ونتيجة لفقد النصير والحامى ، فشاء الله تبارك وتعالى أن يجعل لرسوله هذه الرحلة العلوية حتى يثبت له تكريمه ، وحتى يثبت له أن فى الله عوضاً عن كل مافات ، وحتى يحتفى به الملكوت حفاوة تمسح عنه عناء كل المتاعب التى تعرض لها ، وتعطيه شحنة قوية جادة تكون أداته فى منطلقه الحديد .

وحدث الإسراء والمعراج كان أعظم حدث فى حياة الرسول ، بل فى حياة البشرية كلها ، فلم يقع منذ خلق الله الخلق إلا تلك المرة ، فكان استضافة من الله الرحمن الرحيم للنبى فى رحاب ملكوته حيث يشهد من ملكوت الله ويتزود من ألطاف الله مالم يشهده بشر ومالم يتزود به إنسان .

فى ليلة الإسراء ، كان رسول الله ﷺ فى بيت ابنة عمه هند بنة أبى طالب

---

(١) من حديث للشيخ متولى الشعراوى بتصرف .

(وكنيتها أم هانئ) وقد روت ماحدث فى هذه الليلة فقالت : « ماأسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى ، نائم عندى تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ، ونمنا فلما كان قبيل الفجر أهبَّنا رسول الله ، فلما صلّى الصبح وصلينا معه قال : ياأم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس ، صليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقلت له : يانبى الله ، لاتحدث به الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه ! ! ؟

وقال عبد الله بن مسعود : « أتى رسول الله ﷺ البراق ، وهى الدابة التى كانت يُحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها فى منتهى طرفها ، فحمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد إبراهيم الخليل وموسى وعيسى ونفراً من الأنبياء قد جمعوا له فصلّى بهم » .

ولابن إسحاق تعليق على حدث الإسراء والمعراج بعد أن توفرت لديه مصادر كثيرة تناولت الحدث بالرواية ، مثل عبد الله بن مسعود والحسن بن أبى الحسن وابن شهاب الأزهرى وقتادة ومعاوية والسيدة عائشة ، قال ابن اسحاق فى تعليقه : « ماجتمع فى هذا الحدث كل مايحدث عنه بعض ماذُكر من أمره حين أسرى به ﷺ ، وكان فى مسراه وماذُكر عنه بلاء وتمحيص وأمر الله سبحانه وتعالى فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق ، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء لِيُريه من آياته مأأراد حتى عاين ماعاين من أمره

وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها مايريد » .

ترى ماهو صدى الحدث عند قريش وفى أوساط مكة ؟

تلقت قريش أنباء الحدث بالدهشة وعدم التصديق ، وكذبوا رسول الله وبهتوه ، وأطلقوا ألسنتهم بقول السوء فيه ، ورأوها فرصة للنيل منه ، قال المطعم ابن عدى : « إن أمرك قبل اليوم كان أمماً (يسيراً) غير قولك اليوم ، وأنا أشهد أنك كاذب » .

وأثارت قريش مناقشات مطولة مع رسول الله تناولت ثلاث نقاط . .

الأولى : خاصة بالزمن الذى قطعه رسول الله فى رحلته ذهاباً وعودة ، قالوا : والله إن العير لتطرد (تتابع سيرها دون انقطاع شهراً من مكة إلى الشام وشهراً مقبلة ! ! أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » ، وفى رواية أخرى : « أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً » .

ونقطة الزمن هذه كانت أكبر من أن تتفهمها عقليات قريش ، وأعمق من أن يصل إليها تفكيرهم ، ولقد فاتهم أن الزمن فى هذا الحدث لايجب أن يكون موضع نقاش لأن الفعل هنا منسوب إلى الله تبارك وتعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ، فالله تبارك وتعالى هو الفاعل ، وإذا وقع الفعل من الله وجب على الفور أن يُلغى قانون البشر ، لأن كل فعل كما يختلف باختلاف فاعله ، يختلف أيضا بقوة هذا الفاعل ، ومادام الله هو الذى أسرى برسوله ، والرسول مُصَاحَب ومحمول على قانون ربه ، فإن الزمن والمسافة يجب أن تقاسا بنسبة القوة التى فعلت ، تأسيساً على القانون الذى

ينص على أن الزمن يتناسب تناسباً عكسيًّا مع القوة فكلما زادت القوة قلّ الزمن ، فإذا قيس الزمن فى حادث الإسراء إلى قوة القوى وهى الله ، نجد أن لا زمن لأن الحدث محمول على قانون من لايتحكم فيه الزمن . ولاشك فى أن الذين يدركون شيئاً من طبيعة القدرة الإلٰهية ومن طبيعة النبوة ، لا يستغربون شيئاً فى واقعة الإسراء والمعراج ، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التى تبدو فى نظر الإنسان بالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب مااعتاده ورآه ، والمعتاد المرئى فى عالم البشر ليس هو الحكم فى تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله تعالى ، وطبيعة النبوة اتصال بالملأ الأعلى على غير قياس أو عادة لبقية البشر ، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ الأعلى .

الثانية : سأل المطعم بن عدى رسول الله : « يامحمد ، صف لنا بيت المقدس » ، وقريش تعرف جيداً أمرين ، أولهما أن كثيرين منهم زاروا فى الماضى بيت المقدس ، فهم يعرفونه جيداً ويستطيعون أن يحكموا بصدق محمد أو كذبه حين يصفه لهم ، وثانيهما أن رسول الله لم يذهب قط فى حياته إلى هناك ، ولهذا توقعوا أن يكون الوصف غيرمايعرفون ، أو يعجز عن الوصف فينكشف أمره ويظهر كذبه ، ووصف لهم رسول الله بيت المقدس ، فوجدوا الوصف صحيحاً دقيقاً ، وأسقط فى أيديهم ، ولكنهم ظلوا على ماهم عليه من الغى ، ورفضوا التسليم للرسول ، وقالوا : « إن وصفك لبيت المقدس يحتمل أن تكون حفظته عمن ذهب إليه » .

الثالثة : بعد أن تبين لهم أن وصف بيت المقدس كان صحيحاً ومطابقاً

لمايعرفون ، قالوا : « يامطعم ، دعنا نسأله عما هو أغنى لنا عن بيت المقدس » ، ثم واجهوا الرسول بسؤال جديد : « ما آية ذلك يامحمد ؟ هل رأيت فى مسراك وطريقك مانستدل بوجوده على صدقك » ؟ ، فقال لهم رسول الله : « آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا ، فأنفرهم (يعنى أن صوت الدّابة البراق أنفر عيرهم) ، فندّ لهم بعير (أى شرد) ، فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بمحل كذا مررت بعير فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء ، فكشفت غطاءه وشربت مافيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من الثنية يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء » .

حديث واضح وصريح ، وآيات لاتدع مجالا للشك أو للتكذيب ، ولكنها قريش ، ترى الدليل واضحاً فتنكره ، وترى الآية صادقة فتكذبها ، لقد أسرع نفر منهم إلى الثنية فلقيهم هناك أول مالقيهم الجمل الأورق عليه الغرارتان ، كما حدّث رسول الله ، وسألوا القوم عن الإناء الذى ورد ذكره فى رواية الرسول عليه السلام ، وعن نفار العير ، وعن ند البعير ، وعن الشخص الذى دلهم عليه ، فكانت إجاباتهم تطابق كل ماجاء على لسان رسول الله ﷺ .

وأرادت قريش أن يكون لها شىء من الكسب فى هذه الجولة ، فاتجهت إلى أصحاب رسول الله تشككهم فيه ، وكان اتجاههم أولا إلى أبى بكر الصديق ، فهم يعرفون مكانته عند رسول الله وبين أصحابه ، فإذا تشكك فى أمر من أمور محمد تبعه كثيرون من أتباعه ، وخسر محمد بذلك وفقد أعظم وأقوى وأخطر أعوانه ، كان هذا هو أملهم ومرتجاهم ، ولكنهم أصيبوا بصدمة

قاسية أخفقوا إخفاقاً ذريعاً ، قالوا لأبى بكر : « هل لك ياأبا بكر فى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس وصلّى فيه ورجع إلى مكة » ، فسألهم أبو بكر : « أو قد قال ذلك ؟ » ، ظنًّا منه أنهم يكذبون عليه ، فقالوا : « نعم » ، وانتظروا تكذيباً من أبى بكر ولكنه فاجأهم : « لئن كان قاله لقد صدق » ، ووضعهم أبو بكر أمام حقيقة ثابتة مؤكدة ، وهى أن الرسول هو الأمين الصادق الذى لم يجربوا عليه كذباً قط ، قالوا لأبى بكر : « تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ ، قال : « نعم ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوه روحه » ، ولما سمع أبو بكر مقالة المطعم بن عدى لرسول الله عاتبه قائلا : « يامطعم ، بئس ماقلت لابن أخيك ، جبهته (أى استقبلته بالمكروه) ، وكذبته ، وأنا أشهد أنه صادق » ، ولما بلغ رسول الله ماقاله أبو بكر قال له : « ياأبا بكر إن الله تعالى قد سماك الصديق » ، وأبو بكر لم ينظر إلى الخبر فى ذاته ليناقشه بعقله ، ولكنه تكلم عن المخبر وهو رسول الله ، فإذا حدّث كان حديثه الصدق كله ، ولاينبغى لمن آمن بأنه نبى مرسل أن يكذب أو يشك فى شىء ممايقول ، فهو أمين السماء ، ولايكذب أبداً ، وهذا مبدأ جوهرى يجب أن يسلم به كل من آمن بالله ورسوله لأنه تأكيد لدور العقيدة ، فالعقيدة الصادقة تقبل الخبر على علاته ، وخاصة إذا ورد به نص صريح فى القرآن كما ورد النص الخاص بالإسراء ، وحين يعرض القرآن لأمر من الأمور ، فإن العقيدة الصادقة تلزم بقبول هذا الأمر دون مناقشة ، لأن من يكذّب مانص عليه القرآن صراحة يعتبر كافراً .

كان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى ، فقد

جعل المسجد الأقصى معلماً من معالم الإسلام ، يناظر المسجد الحرام ، وفى هذا – كما يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب – مايصل مشاعر المسلمين بهذين المسجدين ، ويجعلهما معاً آيتين من آيات الله فى الأرض ، يستظل المسلمون بظلهما ، ويقومون على عمارتهما ، وتأمين السبل إليهما ، وهذا لايكون إلا إذا كان هذان المسجدان داخل دار الإسلام وتحت يد المسلمين ، الأمر الذى يكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن فى إخباره بالغيب ، الذى لم يكن يقع لناظر أحد من المسلمين يوم ذاك ، أو يدور فى خوالدهم ، وقد مكّن الله للمسلمين من المسجد الأقصى ، ودخل هو وماحوله فى دار الإسلام منذ خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والإسراء كان انتقالا برسول الله عليه السلام من مكة إلى بيت المقدس وقد أكده القرآن الكريم صراحة ، أما المعراج فكان انتقالا بالرسول عليه السلام من بيت المقدس إلى السموات ، ولم يرد ذكره فى القرآن ، وإن كل ماورد عنه وتفاصيله ورد عن طريق السنّة ، فكله مروى عن رسول الله ﷺ .

والسؤال هنا ، لماذا لم يرد حدث المعراج فى القرآن كما ورد حدث الإسراء ؟

إن رسول الله حين نوقش فى أمر الإسراء استطاع أن يقدم لقومه الدليل المادى على صحته حتى لايعذروا حين يكذبون ، فإن من بينهم من زار بيت المقدس وشاهده وعرف معالمه وتفاصيله ، ويستطيع أن يثبت من صدق وصحة وصف رسول الله لبيت المقدس ، هذا فوق أن الشواهد التى ذكرها رسول الله فى طريق الذهاب والعودة ، يمكن التأكد من صحتها بالرجوع إلى القوم الذين كانوا المعالم الرئيسية والشهود الأحياء لهذه الشواهد ، أما أحداث المعراج فإنها

من الأمور التى تقف العقول فيها ، ويُترك أمر تصديقها أو تكذيبها لمدى الإيمان بشخص راويها ، لأن أحداً من القوم لم يعرج به قبلا ، وبالتالى لم تقع عينه على مارآه رسول الله وشاهده ، ومن ثمّ فإن أحداً لايملك أن يقطع بصدق مايُروى ، ومن هنا فإن من آمن بحدث الإسراء تصديقاً لما تحدث به رسول الله ، آمن أيضاً بأحداث ومشاهد المعراج ، ومن هنا فإن العلماء يرون أن من كذّب بحدث الإسراء يكون كافراً ، لأنه كذّب النص القرآنى ، وهو واضح وصريح ، أما من كذب بالمعراج ، فيكون فاسقاً فقط ، لأنه لم يرد به نص صريح واضح فى القرآن .

بعد حادث الإسراء والمعراج استمرت قريش فى عداوتها لرسول الله وأصحابه ، وشددت فى إهانتهم والاستخفاف بهم ، ولم تعد مكة المكان الملائم لنشر الدعوة .

وأراد الحق تبارك وتعالى أن تكون النصرة من خارج مكة ، فكانت النصرة من أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وهؤلاء كانوا يعيشون فى يثرب بعد أن وفدوا عليها من اليمن بعد سيل العرم ، وكانوا قوماً آميين لايقرءون ولا يكتبون ، يعبدون الأصنام كما كان يعبدها سائر العرب ، وكانت تشاركهم الحياة فيها طائفة كبيرة من اليهود من قبائل بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ، وهؤلاء جاءوها من الشام هرباً من انتقام المسيحيين لما فعلوه بالسيد المسيح .

ورأى اليهود أن هؤلاء العرب يزاحمونهم فى ديارهم وينازعونهم ملكهم وسيادتهم ، وخاصة بعد أن اشتدت شوكتهم وازداد سلطانهم ، فلجأوا إلى الحيلة للتفريق والوقيعة بينهم ، وتم لهم ماأرادوا ، واستحكمت العداوة وقامت

بينهم حروب طاحنة ، وظلت يثرب مسرحاً للنزاع المستمر بين الأوس والخزرج ، ومسرحاً للتنافس الدائم بين اليهود والعرب ، ولما كان اليهود أهل كتاب وعلم ، فقد عرفوا أن نبيًّا أظل زمانه وآن أوانه ، فكانوا كلما وقع بينهم وبين العرب خلاف قالوا لهم : « إن نبيًّا سيبعث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » ، وكان عرب يثرب كلما سمعوا هذا التهديد من اليهود يترقبون ظهور هذا النبى ، فيسبقون اليهود ، ويؤمنون به ، ويتبعونه ويستنصرونه به عليهم .

وفى موسم حج ، خرجت جماعة محدودة النفر من الخزرج إلى مكة ، فالتقى بهم رسول الله وعرض عليهم دعوته ، فقال بعضهم لبعض : « والله إنه لهو النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه » ، فاستمعوا إلى الرسول ، وصدقوا مايقول وآمنوا به وقالوا : « إنا تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك » ، وواعدوه الموسم فى العام المقبل ، وعادوا إلى بلدهم والدين الجديد هو مادة حديثهم .

وفى العام المقبل الذى تواعدوا عليه ، وفد إلى مكة وفد من اثنى عشر رجلا ، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا مع الرسول ﷺ عند العقبة ، وعرض عليهم الإسلام فبايعوه عليه السلام ، وكانت بيعة العقبة الأولى فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، وقال عبادة بن الصامت « بايعنا رسول الله ﷺ على ألانشرك بالله شيئاً ، ولانسرق ، ولانزنى ، ولانقتل أولادنا ،

ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولانعصيه فى معروف » .

وبعث رسول الله معهم عند انصرافهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، وكان نزول مصعب يثرب بداية الخير كل الخير ، فقد استضافه أسعد بن زرارة من بنى النجار ، وأقام عنده ، وبدأ مباشرة مهمته يعاونه أسعد ، وعلم بأمرهما أسيد بن حضير وهو سيد قومه فواجههما قائلا : « ماجاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلا عنا » ، فدعاه مصعب إلى أن يسمع قولهما ثم يرى رأيه ، ثم حدّثه عن الإسلام ، فأعجب بحديثه وقال : «ماأحسن هذا وأجله » ، وأسلم ، ثم قال : « إن ورائى رجلا إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه ، سعد بن معاذ ، وسأرسله إليكما » ، وكان اللقاء مع سعد ، وعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فهش له وجهه ، وأسلم ، ثم جمع قومه وقال : « إن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله » ، فأسلم بنو عبد الأشهل .

وتفتحت قلوب أهل يثرب للإيمان ، وخرج وفد منهم إلى مكة ، وكان لقاؤهم مع رسول الله ﷺ سرًّا فى شعب العقبة ، وكان العباس بن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام أول المتحدثين فى هذا اللقاء ، وكان قد خرج مع ابن أخيه . . وهو مازال على دين آبائه يستوثق له ، فقال : « إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل مارأينا منه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا أن ينحاز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن

فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده » ، وتكلم بعد العباس البراء بن معرور فقال : « إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ماننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله ﷺ ، فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت فنحن نبايعك » ، وتكلم رسول الله فقال : « تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقوموا فى الله لاتخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى مماتمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم » ، فأخذ البراء بيده الشريفة وقال : « نعم والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مماتمنع منه أزرُنا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر » .

وتساءل الهيثم بن التيهان : « يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) حبالا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » .

وطلب الرسول منهم أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيباً : « أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بمافيهم كفلاء » ، فأخرجوا اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله ﷺ : « أنتم على قومكم بمافيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

وكان العباس بن عبادة آخر المتكلمين فقال : « هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ ، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنه إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة المال وقتل الأشراف، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة » ، فقالوا جميعاً : « فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الجنة » ، فارتاحت نفوسهم وقالوا : « ابسط يدك » ، وبايعوه .

وكانت بيعة العقبة الثانية ، وكانت أخطر بيعة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، إذ تطورت الأحداث بعدها تطوراً سريعاً ، ودخل الصراع بين المسلمين وقريش مرحلة هامة وحرجة ، فبهذه البيعة انفتحت أمام المسلمين أبواب الرجاء فى الغلب ، وتبدلت كروبهم فرجاً ويأسهم أملا ، وخوفهم أمناً ، أما قريش فقد أذهلتهم أخبار البيعة حين بلغتهم ، وزلزلوا زلزالا شديداً ، وطاشت أحلامهم ، واضطرب تفكيرهم ، وخرجوا يلاحقون القوم ويطلبونهم ، وكادوا أن يفتكوا بسعد بن عبادة ، لولا أن أسرع لنجدته جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية ، لأنه كان على حد قولها يجير لهما تجارتهما ويمنعهما ممن أراد ظلمهما ببلده .

وأدركت قريش أن سلطانهم يغيب ونفوذهم يأفل ، وأن كفة محمد قد رجحت ، وأنه وأصحابه قد أصبحوا فى موضع قوة ، وأن الغد له ولدينه .

وتلفت النظر فى بيعة العقبة الثانية أمور ذات معنى وقيمة ، ففى هذا اللقاء

كان الحوار صريحاً واضحاً ، يدور فى الإطار الموضوعى ، بحرية كاملة امتزجت بالإخلاص لله والوفاء للحق والفناء فى الدعوة ، فالعباس بن عبد المطلب يشترط عليهم أن يمنعوا رسول الله أو يتركوه بين قومه ، والهيثم بن التيهان يسأل فى حرية وجرأة ودون خوف عن موقف رسول الله إذا انتصر بهم ، هل يتركهم لليهود ويعود أدراجه إلى مكة ، وهو بذلك يريد توضيحا للموقف ، ويحب أن يضع النقط فوق الحروف ، فيشترط لنفسه وقومه ، ويتلقى من رسول الله الرد الذى كان برداً وسلاماً ، وبصراحة الحوار وصدقه ، يصارحه الرسول بأنه وإن كان مكىّ المولد والنشأة ، إلا أن الإسلام قد ألغى الحدود ، وتخطى الحواجز ، ولهذا فهو عليه السلام منهم وهم أيضاً منه .

ويتلاحظ أن الإسلام حتى البيعة الثانية كان وحيا يتنزل من السماء ، وتوجيهاً من رسول لاينطق عن الهوى ، أما بعد البيعة فقد بدأت مرحلة التطبيق الجاد لأحكام الدين ، فكأن الرسالة قد خرجت بالبيعة من مرحلة النظرية البحتة إلى التطبيق العملى ، ومن مرحلة الفكر إلى السلوك .

وهذا سؤال يفرض نفسه :

إذا كانت المقادير قد شاءت أن تكون يثرب دار النصرة ، وأن يكون أهلها هم الأنصار ، وأن ينطلق الإسلام منها انطلاقته المتوثبة ، فلماذا لم يكن البعث أصلا منها ؟

ونحن نسجل الإجابة على هذا السؤال من حديث لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فقد قال : « إن المدينة لم تأخذ خطرها فى الوجود العربى كما أخذت مكة خطرها ، فمكة بيت الله ، ومشرق نور ميلاد الرسول ، ومطلع

وحى الله عليه ، فيها السيادة المطلقة لقريش على سائر الجزيرة ، فلم يشأ الله تبارك وتعالى أن يجعل الصراخ للدعوة فى المدينة أولا ، وإنما شاء أن يجعله فى أذن هؤلاء السادة الذين تتهيبهم العرب جميعاً ، فحين يصرخ الرسول فيهم ليسفه كل مناهجهم وجميع تفكيرهم ، إنما يكون قد صرخ فى أذن السادة ، ولم يكن بمنأى عنهم ولابغريب ، ولو أن النصرة جاءت من مكة لقال قائل إن أهل محمد وعشيرته فى مكة تعصبوا لرجل منهم ليسوسوا به الدنيا ، كما ساسوا بمكانتهم العرب ، فشاء الله أن يكون البعث من مكة ، وأن تكون النصرة للدين فى المدينة ، حتى يستقر فى أذن الدنيا جميعها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد الإيمان بمحمد » .

وثمة نقطة هامة

إن أصحاب العقبة سألوا رسول الله قبل مبايعته « فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ » وكان رد رسول الله كلمة واحدة فقط ، استمعوا إليها جيداً ، وفهموا مدلولها ، ثم اقتنعوا بها ، وأعلنوا مبايعتهم ، كانت هذه الكلمة هى الجنة .

إن أصحاب العقبة بايعوا رسول الله ، فأخذ عليه السلام لنفسه عهدا ، خلاصته أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ، وهم حين أعطوا هذا العهد كانوا مقدرين تماماً لتكاليفه ، فهم سيقفون بدعوة الإسلام أمام القوى المضادة ، يجاهدون أعداءها ويحاربون خصومها ، وربما تكلفوا فى سبيل ذلك التضحية بالنفس والمال ، هذا ماأعطاه المبايعون ، أما رسول الله ﷺ فقد أعطاهم فى مقابل ذلك وعداً بالجنة ، وهذا الوعد يبين منهج السماء

فى وضوح ودقة ، فإن المنهج الإلهى لم يكن ليُمنى الناس بغنائم ، أو بشىء من عروض الدنيا ، فالداخل على منهج الله داخل على أنه معطٍ لاآخذ ، وعلى أنه مضحٍ لايطلب ثمناً إلا الجنة وبهذا المنهج يدخل الداخلون فى الإسلام ، وليس فى نيتهم أن يطلبوا شيئاً لأنفسهم من زهوة الدنيا ولامتاعها ، اكتفاء بالجنة .

وهذه حكمة بالغة ودرس عظيم من دروس الإسلام ، ارتفع بالقوم إلى مرتبة عالية من مراتب السمو الإنسانى ، تعلو بهم على المال وعلى الجاه ، وعلى كل مايتكالب عليه الناس من متاع الحياة الدنيا .

ولايختلف اثنان على أن ماأعطاه الرسول للقوم حين بايعوه هو أعظم وأرفع وأثمن عطاء ، وهل هناك عطاء يرتفع فى قيمته إلى مستوى الجنة ؟

١٠ - وكان المستقر وكانت النصرة

باشر مصعب بن عمير مهمته فى يثرب كداعية للدين الجديد ، واستجابت له الجموع ، وأقبل عليه الناس يسمعون منه ، ويعلنون إسلامهم على يديه ، وأصبحت يثرب تعج بأصحاب القلوب التى قوى إيمانها بالله ورسوله ، وبأصحاب العقول التى تفتحت وتقبلت عن رضا واقتناع العقيدة الإسلامية الأصيلة ، وازداد عدد الأنصار بعد أن تبين لهم أن الإسلام هو كلمة الحق من ربهم ، وتوفرت فى يثرب بيئة إسلامية صالحة ، ساعدت على تكوين طلائع مباركة ميمونة ، كانت درع الإسلام وقوته ، وأصبحت يثرب محط الرحال ، ومطمح الآمال ، وموطن العقيدة ، وأرض الجهاد والنضال .

وبدأ رسول الله يفكر فى الانتقال بالدعوة من مكة إلى يثرب ، فأتباعه هناك يتزايدون كل يوم عدداً وسلطاناً ، ويهود المدينة لايتعرضون لهم بأذى أوضر ، وهى مدينة ذات رخاء يفوق مابمكة ، فهى منطقة ذات زرع ونخيل وأعناب ، تتوافر فيها وسائل متعددة للكسب ، وأيقن عليه السلام أن مسلمى مكة سيجدون فى يثرب عند إخوانهم فى الله والدين الأمن الذى افتقدوه فى مكة ، ويقول الدكتور محمد حسين هيكل : « إذا كان الإيمان أقوى سند يجعلنا نستهين بكل شيء ، ونضحى عن طيب خاطر فى سبيله بالمال والراحة والحرية والحياة ، وإذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الإيمان استعاراً ، فإن فى استمرار الأذى

والتضحية مايشغل المؤمن عن دقة التأمل التى تزيد فى أفق المؤمن سعة ، وفى إدراكه للحق قوة وعمقاً ، وقد أمر محمد الذين اتبعوه من قبل أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية إذ كانت بلاد صدق ، وكان بها ملك لايُظلم عنده أحد ، فأولى بالمسلمين أن يهاجروا إلى يثرب ، وأن يتقوا بأصحابهم المسلمين فيها ، وأن يتآزروا بذلك على رفع مايمكن أن يصيبهم من شر ليكون لهم بذلك من الحرية فى تأمل دينهم والجهر به مايكفل إعلاء كلمته » .

بعد أن تمت البيعة الثانية ، اشتدت قريش فى عدائها للمسلمين ، فنال هؤلاء منهم من الشتم والأذى مالم يكونوا ينالونه ، وجعل البلاء يشتد عليهم ، وصاروا مابين مفتون فى دينه ، وبين معذب فى أيديهم ، وبين هارب يتوارى عن أنظارهم ، وشكوا إلى رسول الله ، فسمح لهم عليه السلام بالهجرة إلى يثرب ، فقد أخبر عليه السلام بأنها دار هجرته ، وقال لأصحابه : « لقد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب ، من أراد أن يخرج فليخرج إليها » ، وقال : « إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » .

وكانت الهجرة إلى يثرب .

ولاشك فى أن هناك اختلافاً واضحاً بين هجرة المسلمين إلى الحبشة وهجرتهم إلى يثرب ، فالأولى كانت خروجاً من مكة فراراً بدينهم إلى ملك لايُظْلم عنده أحد يجدون عنده الأمان ، أما الهجرة الثانية فكانت خروجا للتجمع ولخلق قوة جديدة يستعصمون بها بتوفيق من الله تعالى وهدايته ، هذا فضلا عن أن الهجرة إلى الحبشة لم تأخذ الكثير من تفكير قريش ، ولم تزعجهم برغم المحاولة التى بُذِلت لإعادة الخارجين ، بل كانت هذه الهجرة مثار إشفاق

بعض المشركين كعمر بن الخطاب ، أما الهجرة إلى يثرب فقد أثارتهم وأغضبتهم ، لأنهم كانوا يدركون أبعادها ويخشون نتائجها ويحسبون حسابها ، لأنها كانت هجرة إلى قوم أهل حرب ، وإن كان ثمة إشفاق فعلى أنفسهم هذه المرة .

كان خروج المسلمين من مكة سِرًّا أو على استخفاء من قريش ، فيما عدا عمر بن الخطاب ، فهو وحده الذى أعلن هجرته ، قال علىّ بن أبى طالب : « ماعلمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه وتنكّب قوسه ، وانتضى فى يديه سهماً ، واختصر عنزته (حربة صغيرة علقها عند خاصرته) ، ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلّى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، فقال : شاهت الوجوه ، لايرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه أو يؤتم ولده أو ترمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ، فماتبعه أحد » .

وفطنت قريش للأمر فحاولت أن تقطع عليهم الطريق ، وأن تمنعهم ، وأن تردّ كل من استطاعت ردّه لتحتفظ به فى مكة فتفتنه عن دينه أو تعذبه وتنكل به ، وكانت تحول بين الزوج وزوجه وبين الأب وابنه .

وكان أول مهاجر إلى يثرب أبو سلمة عبد الأسد بن هلال [1] ، وكان قد هاجر إليها قبل بيعة العقبة ، وهو ممن هاجروا إلى الحبشة ، فلما عاد إلى مكة آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، فخرج إلى يثرب مهاجراً ومعه

---

(١) اسمه عبد الله وهو من بنى مخزوم .

امرأته وابنه ، فاعترض بنو المغيرة (قوم امرأته) طريقهم ومنعوا امرأته من الخروج معه ، « ياأبا سلمة قد غلبتنا على نفسك ، فصاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد » ، وحبسوها لديهم ، ثم اعترضه قومه بنو عبد الأسد ووضعوا أيديهم على ابنه واحتفظوا به لديهم ، وهكذا فرقوا بين الرجل وزوجه ، وبينه وبين ابنه ، وعبرت الزوجة عن مصيبتها فقالت : « ماأعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ماأصاب آل أبى سلمة » ، وظلت عند أهلها حتى توسط لها ابن عم لها فقال لقومه : « أما ترحمون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين ولدها وزوجها » ، فسمحوا لها باللحاق بزوجها ، ورد إليها بنو عبد الأسد ولدها فخرجت به إلى يثرب .

وعندما قرر صهيب بن سنان الهجرة ، اعترض طريقه كفار قريش وقالوا له : « أتيتنا صعلوكا حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لايكون ذلك أبداً » ، فقال لهم : « أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ » ، قالوا : « نعم » ، فقال : « فإنى جعلت لكم مالى » .

وخرج عياش بن أبى ربيعة فلحق به أبو جهل والحارث بن هشام واحتالا عليه فقالا إن أمه قد نذرت ألا تغسل رأسها ولاتستظل من شمس حتى تراه ، ولاتأكل ولاتشرب ولاتدخل مسكناً حتى يرجع إليها ، ثم أثارا عاطفته نحو أمه فقالا : « أنت أحب ولد أمك إليها ، وأنت فى دين منه بر الوالدين ، فارجع إلى مكة فاعبد ربك كما تعبده بالمدينة » ، فصدقهما ورقّ قلبه ، وفى طريق العودة أوثقاه بالحبال وجلداه نحواً من مائة جلدة ثم دخلا به مكة وقالا :

« يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا » .

ولم تمنع محاولات قريش المسلمين من الهجرة ، فهاجر من استطاع حتى خلت من مكة ديارها ، ولم يبق بها إلا رسول الله وأبو بكر وعليّ والمستضعفون من المسلمين ، وأراد أبو بكر أن يخرج ، فاستأذن رسول الله فقال له : « لاتعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً » ، فأدرك أن الرسول فى انتظار الإذن له فى الهجرة ، فاشترى راحلتين واحتبسهما فى داره ، وجعل يعلفهما ويعدهما ليوم قادم قريب .

ولم يكن موقف رسول الله ﷺ واضحاً فى نظر قريش ، هل سيهاجر ويلحق بأصحابه ، أم سيبقى فى مكة ، لقد أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة وبقى هو فى مكة ، وبرغم عدم وضوح الرؤية أمامهم ، فإنهم كانوا يخشون أن يقدم على هذه الخطوة ويترك مكة إلى يثرب .

وفى دار الندوة ناقش كفار قريش موقفهم من محمد ، وطرح أبو البخترى ابن هشام رأياً « احبسوه فى الحديد ، واغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ماأصابهم » ، واعترض البعض على هذا الرأى « ماهذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم لينزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ماهذا لكم برأى فانظروا فى غيره » .

وجاءهم رأى جديد « نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله مانبالى أين يذهب ولاحيث وقع ، وإن غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا

أمرنا وألفتنا كما كانت » ، وجاء الاعتراض على هذا الرأى مقنعاً لهم : « لاوالله ماهذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، فوالله لو فعلتم ، ماأمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ماأراد ، فروا فيه رأيا غير هذا » .

ثم جاء القول الفصل على لسان أبى جهل بن هشام : « والله إن لى فيه رأياً ، ماأراكم وقعتم عليه بعد ، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليداً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه فى القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيرضوا منه بالعقل فعقلناه لهم » ، وأعجبهم الرأى واستحسنوه ، وقالوا : « هذا الرأى الذى لارأى غيره » .

إذن لم يعد أمام قريش إلا أن يتخلصوا من رسول الله بقتله ، وقد استراح الجميع لرأى أبى جهل ، وهو رجل يحمل لمحمد كل شر وسوء ، وكان رأيه قمة التصعيد للشر ، فدبروا أمرهم ، ونسوا أن السماء كانت قد أعدت عدتها لتفسد ماااستقر عليه رأيهم ، والتقى قرار السماء بقرار الأرض على أمر قد قُدر ، فقد أوحى الله إلى نبيه ورسوله بالهجرة ، وأذن له فيها ، وجاء جبريل بأمر السماء وقرارها ، « يامحمد ، لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه » .

ونشر الظلام أرديته ، وآوى الناس إلى مضاجعهم ، فلما جن الليل خرج

جمع من قريش على رأسه أمية بن خلف وأبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث ، إلى بيت رسول الله ، والتفوا حولها ، والسيوف تلمع فى أيديهم ، والأمل يداعب نفوسهم فقد حانت اللحظة الحاسمة فى تاريخ الصراع .

واستدعى رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب ، وأمره أن ينام على فراشه ويتشح ببرده الأخضر ، وأن يتخلف عنه فى الهجرة حتى يؤدى ما كان عنده عليه السلام من ودائع إلى أصحابها : « نم على فراشى ، واتشح بردائى هذا الحضرمى ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » .

وبينما الجمع مجتمع حول الدار قال لهم أبو جهل : « إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحترقون فيها » وسمعه رسول الله فقال : « نعم ، أنا أقول ذلك » .

وخرج رسول الله من بيته وأخذ حفنة من تراب ، نثرها على رءوس القوم ، وهو يتلو آيات من سورة يس ، وكأنه عليه السلام قد أراد بهذ الحفنة من التراب أن تبقى على رءوسهم دليلا ماديًّا يسخر من قريش لغرورهم إذ حسبوا أنهم بائتمارهم يحققون رغبتهم ويشفون مايجدون فى صدورهم .

واتجه رسول الله إلى بيت أبى بكر فى وقت لم يتعوده أهل البيت أن يأتيهم فيه ، فعن عائشة أنها قالت : «كان لايخطئ رسول الله أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه

لرسوله فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله بالمهاجرة فى ساعة كان لايأتى فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ماجاء رسول الله فى هذه الساعة إلا لأمر حدث » .

وفى بيت أبى بكر أفصح رسول الله عن سبب مجيئه قائلا : « إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة » ، فسأله أبو بكر الصحبة ، ووافق الرسول ، وغمرت الفرحة أبا بكر ولم يطق أن يخفيها حتى إنه بكى ، عن السيدة عائشة قالت : « فوالله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى » ، وقال أبو بكر : « يانبى الله ، إن هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا ، فخذ بأبى أنت وأمى يارسول الله إحدى راحلتى هاتين » ، فقال رسول الله : « بالثمن » ، لأنه عليه السلام أراد أن تكون هجرته إلى الله تعالى من ماله الخاص ، فهذه رحلة مباركة تتطلب البذل ، والبذل فى هذا المجال عبادة رفيعة ، ولايفهم من ذلك أن رسول الله كان رافضاً لأموال أبى بكر ، فكم أنفق أبو بكر منذ أسلم وقد قال رسول الله فى ذلك : « ماأحد أمنّ علىّ فى صبحته وذات يده من أبى بكر ، ومانفعنى مال مانفعنى مال أبى بكر » .

وخرج رسول الله ورفيقه أبو بكر ليلا إلى غار ثور ، تحميه السماء وترعاه ، وأبو بكر يمشى تارة خلفه وتارة أمامه ، فسأله الرسول عن ذلك فقال : « يارسول الله ، أذكر الطلب فأمشى خلفك ، وأذكر الرصد فأمشى من أمامك » ، ولما بلغا الغار دخله أبو بكر أولا ليطمئن على سلامة المكان قبل أن يدخله رسول الله » ، والذى بعثك بالحق لاتدخل حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك » ، وفى هذا الغار الغارق فى الصمت والوحشة ثوى

الرجلان ثلاثة أيام ، وكان هذا الغار هو المقر الأمين الذى استودعته السماء مصير الرسالة الخاتمة ومستقبل الدعوة الكريمة .

وظل الرسول وصاحبه فى الغار ثلاث ليال ، يتسقطان أخبار القوم ويرقبان مايكون من حالهم ، وكان يتولى الإبلاغ بالمعلومات عبد الله بن أبى بكر ، وهو غلام حاذق ماهر سريع الفهم ، فكان يقضى نهاره بمكة مع قريش يسمع مايأتمرون به ، ومايردده القوم فى مجتمعاتهم ومجالسهم من أحاديث عن الرسول ورفيقه ، ثم ينطلق فى السماء بالحصيلة ، ويأتى الغار ويخبرهما بالأخبار .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يرعى غنمه فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما الأغنام ليحتلبا ويذبحا ، كما كان يعفى بأغنامه على آثار عبد الله ابن أبى بكر حتى لاتظهر وينفضح أمر رسول الله ورفيقه ، وكان يفعل ذلك فى كل ليلة من ليالى الغار الثلاث بتوجيه وإرشاد أبى بكر .

أما أسماء بنت أبى بكر فكان لها خلال هذه المدة على قصرها دور كبير جليل وخطير ، فقد تولت مهمة إمداد الرسول ورفيقه بما يصلحهما من الطعام والشراب .

وتمت عملية تمويه على مدخل الغار ، لترد الطلب عن رسول الله وصاحبه ، فما إن دخل رسول الله ورفيقه الغار حتى نبتت فى وجهه شجرة يقال لها العشار ، فسترته بفروعها ، وبعث الله العنكبوت فنسجت مابين فروع الشجرة نسجاً متراكماً بعضه على بعض كنسج أربع سنين ، ثم أمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار وباضتا .

أما المتآمرون المجتمعون حول بيت رسول الله فقد روى الإمام أحمد :

« وبات المشركون يحرسون عليّا يحسبونه النبي ﷺ ، وبينما هم بالباب أتاهم آت فرآهم على ماهم عليه ، فسألهم : ماتنتظرون هاهنا ؟ ، فقالوا : محمد ، فقال خيبكم الله ، والله خرج محمد عليكم ، ثم ماترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفاترون مابكم ؟ » فوضع كل يده على رأسه فإذا عليه تراب ، فأسرعوا يقتحمون الدار فإذا بعلى على فراش الرسول ، فهاجوا عليه وسألوه : « أين صاحبك ؟ » ، فقال : « لاأدرى » ، فقالوا : « والله لقد صدقنا الذى كان حدّثنا » ، واتجهوا على الفور إلى بيت أبى بكر فلم يجدوا به سوى بناته ، فسألوا أسماء : « أين أبوك ؟ » ، فقالت : « لاأدرى والله أين أبى » ، فلطمها أبو جهل لطمة طرحت منها قرطها .

وخرج القوم ، من كل بطنٍ رجل ، يبحثون عن رسول الله ورفيقه فى كل الأنحاء ، ووصل نفر منهم إلى الغار ، فوجدوا نسج العنكبوت والشجرة والحمامتين ، وأيقنوا أن أحداً لم يدخل الغار مع وجود هذه الآيات الحسية التى هى دون شك من الخوارق ، ولقد حاول بعض النفر أن يتسلقوا إلى الغار ، ثم عاد أحدهم فسأله أصحابه : « مالك لم تنظر فى الغار ؟ » فقال : « إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أنه ليس أحد فيه » .

وسمع أبو بكر دبيب أقدامهم إزاءه فأمسك أنفاسه ، وبقى لاحراك به ، وأسلم أمره لله ، وقال فى لهجة خافتة : « يارسول الله ، لو نظر أحدهم تحت أقدامه لرآنا » ، فقال له الرسول وقد امتلأ ثقة بربه : « ياأبا بكر ، ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ، لاتحزن إن الله معنا » .

واقتنع المشركون بأن ليس أحد فى الغار فتنادوا للعودة ، إلا أنهم خلال الليالى الثلاث التالية ظلوا يبحثون وينقبون ليلا ونهاراً فى كل موضع ومكان ، وأرسلوا خبراءهم يلتمسون آثار رسول الله ورفيقه ، ثم يئسوا من العثور عليهما ، وأيقنوا أنهما قد أفلتا ، فأوقفوا البحث وكفوا عنه ، ولكنهم أعلنوا عن جائزة قدرها مائة ناقة لمن يأتيهم برسول الله ﷺ أسيراً أو قتيلا .

بعد انقضاء الأيام الثلاثة وصل إلى الغار عبد الله بن أريقط ومعه الراحلتان اللتان كان أبو بكر قد أعدهما للرحلة ، وعبد الله هو دليلهما فى الرحلة وكان مشركاً ولكنه كان أميناً عليهما . .

وبدأت رحلة التاريخ .

واختار عبد الله طريقاً غير ماألف الناس ، وهو طريق الساحل ، فأمعن إلى السير فى الجنوب أسفل مكة ، ثم اتجه إلى تهامة على مقربة من شاطىء البحر الأحمر ، ثم اتجه شمالا محاذيا الشاطئ مبتعداً قليلا عنه ، وكان اختيار الطريق اختياراً موفقاً لأنه لايمكن أن يخطر على بال قريش أن الركب يسلك هذا الطريق ، وقال ابن سعد فى الطبقات : « إن عبد الله بن أريقط أخذ بهم فى السير وهو يرتجز ، ولعل هذا كان نوعاً من التضليل أريد به ألا يفطن أحد من القوم إليهم ، فإن الذى يرتجز ويعلن عن نفسه فى السير لايمكن أن يكون هارباً ، وقد استمروا يسيرون طوال ليلتهم وشطراً من النهار حتى تعبوا » .

وحين تهيأ الركب للسير ، وأخذ وجهته إلى يثرب ، نظر رسول الله إلى مكة نظرة وداع حارة وقال : « والله إنك لأحب أرض الله إلىّ » ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك قهراً ماخرجت » ، وعن أبى هريرة

قال : « وعندما بلغ الركب الجحفة اشتاق رسول الله إلى مكة ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) .

وأمضى الركب الميمون يلفحه حر الهجير ، والرسول وصحبه لايعبثون بمشقة ولا يشعرون بتعب ، تهوّن عليهم عناية الله الصعب ، وتذلل العسير ، وتدنى القصىّ ورسول الله يدعو ربه : « الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً ، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام ، اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى وبارك فيما رزقتنى . . » وبهذا الدعاء وغيره كان رسول الله يجد الأنس بربه فى تلك الرحلة القاسية .

وخلال الرحلة طلب رسول الله من أبى بكر أن يشغل الناس عنه ، وأن يتكفل هو بالجواب حتى لايضطر إلى قول مايخالف الحقيقة وماينبغى لنبى أن يكذب ، فكان أبو بكر إذا سُئِل : « من هذا الذى معك ؟ » ، يقول : « هذا الرجل يهدينى الطريق » ، ولعل الناس لم تسأل عن شخصية أبى بكر لأنه كان معروفاً لديهم ، لأنه كان يكثر المرور عليهم فى التجارة للشام ، وذكرت بعض الروايات أنه سئل : « من أنت ؟ » ، فكان يقول : « باغى حاجة » .

كانت قريش قد جعلت مائة ناقة لمن يأتيها برسول الله أسيراً أو قتيلا ، وأعلنت ذلك للناس كافة فى مكة ، فأغرى ذلك بعض السفهاء ذوى المطامع ، فخرجوا بحثاً عن رسول الله ، طمعاً فى المائة ناقة ، وكان من هؤلاء سراقة بن مالك بن جُعشم ، فبينما هو مع قومه بنى مدلج بقديد (محل قريب من رابغ) جاء رجل فحدّثه : « ياسراقة إنى رأيت أسودة (أى أشخاصاً بالساحل) ، أراه ، محمداً وأصحابه » ، فكذّبه سراقة وضلله حتى يظفر

بالمكافأة التى رصدتها قريش ، ثم مكث مع القوم قليلا ، ثم ذهب إلى بيته فلبس سلاحه ، وأمر أن يُرسل فرسه إلى بطن الوادى ، حتى لايراه أحد وهو يندفع فى إثر محمد وصحبه ، ولندع الحديث لسراقة ، قال : « فعرفت أنهم هم فقلت ! إنهم ليسوا هم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا (أى بمعرفتنا) يطلبون ضالة لهم ، وأومأت إليه أن اسكت ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت إلى منزلى ، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى خفية إلى بطن الوادى وتحبسها علىّ ، وأخذت رمحى ، وخرجت به من ظهر البيت حتى أتيت فرسى ، فركبتها ، فدفعتها ، ففرت بى حتى دنوت منهم فعثرت فرسى ، فخررت عنها فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا ؟ ، فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى وعصيت الأزلام ، فجعل فرسى يُقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لايلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لأثر من يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم ووقع فى نفسى حين لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار مايريد الناس بهم ، وعرضت الزاد والمتاع ، فلم يردانى ولم يسألانى إلا أن قالا : اخف عنا ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لى فى رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ .

باءت محاولة سراقة بالفشل ، ولكنها أكدت أن الحق تبارك وتعالى أعطى نبيه الأمان والأمن والنصرة ، وآية ذلك أن سراقة خرج أملا فى إعادتها لاعن يقين واقتناع ، وإنما طمعاً فى مكافأة قريش ، فهو إذن قد خرج لأمر دنيوى لايتصل بالدين أو العقيدة ، ولقد أدرك أن هناك قوة تحمى الركب حين منعت السماء فرسه من ملاحقة القوم فقد كبت به مرتين ، وساخت يداها فى كل مرّة فى الأرض حتى وصلت فى المرّة الأولى إلى بطنها ، وفى المرّة الثانية إلى ماهو زائد على ذلك وكذلك أيقن أن رسول الله ﷺ سيظهر ، فقد خرجت الأزلام فى كل مرّة بما يكره ، ولعله اقتنع بعد كل هذه الآيات بصدق الدعوة ، فقد طلب كتاباً من الرسول ، فلما أعطاه إياه احتفظ به حتى فرغ رسول الله من حنين والطائف ، فجاءه بالكتاب ، فقال له الرسول : « هذا يوم وفاء وبر » ، وأسلم سراقة وقتها وحسن إسلامه .

هذا فوق أن سراقة حين كان قريباً من الركب وعرض على النبى وصحبه الزاد والمتاع قالوا له : « لاحاجة لنا بذلك ولكن عَمِّ عنا الطلب » (أى اصرف عنا الناس ولاتخبرهم) ، فاستجاب على الفور وقال : « لاأريبكم ولايجيئكم منى شيء تكرهونه » ، وهكذا أعطى سراقة العهد على نفسه ، فلما رجع ووجد الناس جادين فى البحث جعل يُخذل عنهما ، ويقول لكل من لقيه : « قد كفُيتم هذا الوجه » ، ليصرفهم ، وهكذا تحول سراقة من فارس مطارد إلى حارس أمين يضلل من يطارد المهاجر العظيم ، بعد أن كان هو يطارده ، والدليل الواضح على ذلك أنه بعد أن عاد إلى مكة اجتمع عليه الناس ، فأنكر أنه رأى محمداً وما زال أبو جهل به ، حتى اعترف وأخبرهم بما حدث ، ولكنه

أنهى حديثه بقوله مخاطباً أبا جهل ..

أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشك بأن محمداً رسول ببرهان فمن ذا مقاومه ؟

وانطلق الركب إلى غايته فى منطقة صحراوية ، حرها محرق ، وقيظها ملتهب ، وهم مستسلمون لقضاء الله مؤمنون بأنه لايجرى إلا بخير ، وكانوا كلما أرهقهم السير نزلوا فاستراحوا والتمسوا طعاماً أو شراباً من الحى الذى نزلوا به ، روى البيهقى قال : « لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه مستخفيين ، مرا بعبد يرعى غنماً فاستسقياه اللبن فقال ماعندى شاة تحلب غير أن هناك عناقاً حملت أول الشتاء ، وقد أضرجت (أى نزل ولدها قبل أوانه) ، ومابقى لها من لبن ، فقال عليه السلام : ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها النبى ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بوعاء فحلب ، فسقى عليه السلام أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب ﷺ ، أخذ العجب الراعى ، فقال : من أنت فوالله مارأيت مثلك قط ، قال عليه السلام : وتراك تكتم علىّ حتى أخبرك ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فإنى محمد رسول الله ، فقال الراعى : « أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ، قال : « إنهم ليقولون ذلك ، قال : « فإنى أشهد أنك نبى ، وأشهد أن ماجئت به حق ، وأنه لايفعل مافعلت إلا نبى ، وأنا متبعك » .

ومرّ الركب بامرأة أعرابية كريمة هى أم معبد ، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرجال ، تطعم وتسقى من يمر بها ، فلما نزلوا عندها سألوها طعاماً أو شراباً

يشترون منه ، فلم يصيبوا عندها شيئاً وقالت : « والله لو كان عندنا شيء ماأعوزكم القِرَى وماكنتم إذن بحاجة إلى أن تسألوا شيئاً أو تدفعوا ثمناً » فنظر رسول الله فوجد عندها شاة ، فسألها عنها : « ماهذه الشاة ياأم معبد ؟ » ، فقالت : « هذه شاة خلّفها الجهد عن الغنم » ، فاستأذنها رسول الله فى أن يحلبها : « أتأذنين لى أن أحلبها » ، فقبلت : « نعم ، بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً » ، فدعا الرسول بالشاة ومسح ضرعها وذكر اسم الله وقال : « اللهم بارك لها فى شاتها » ، وإذا بالشاة تفتح مابين أرجلها ، ودرت باللبن ، فشرب رسول الله ، وشرب من معه ، وشربت أم معبد ، وبقى من اللبن الكثير ، ثم غادر الركب منزل أم معبد ، وماهى إلا فترة قصيرة وحضر زوجها ، فرأى اللبن فعجب وتساءل « من أين لكم هذا والشاة عازبة ولاحلوبة فى البيت ؟ » ، وروت له أم معبد ماحدث : « لا والله ، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت » ، فقال : « والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطلب صفيه لى ياأم معبد » ، ووصفت له أم معبد رسول الله ، وحدثته عن طلعته وهيئته ووقاره وعذوبة حديثه وسماحة نفسه وطلاقة وجهه وجلال مظهره ، فلم يتمالك الرجل نفسه وقال لها : « هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ماذكر ، ولو كنت وافقته ياأم معبد لالتمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا » .

هذه المرأة التقية رأت حين نزل بها رسول الله صورة من خوارق العادات ، وعرفت من زوجها أن الذى نزل هو رسول الله الذى وصلت إليهم -كما وصلت كل العرب- أخباره ، هذه المرأة وفد عليها بعض من فتية قريش بعد انصراف

رسول الله وسألوها عنه وفهمت أنهم يبحثون عنه ليردّوه إلى أهلهم ، وتكون لهم الجائزة المعلنة ، فأبت أن تخبر عنه أو ترشدهم إليه وتظاهرت بأنها تجهل مايسألونها عنه ، وقالت لهم : « إنكم تسألون عن شيء ماسمعت به قبل عامى هذا » ، أليس هذا دليلا على أن السماء تتابع خطوات رسول الله وتحميه فى كل موقف وتحرسه من كل سوء .

كان خبر خروج الرسول من مكة قد انتشر وذاع ووصل أهل المدينة فكانوا يتحرقون شوقاً إلى لقائه ، وكانوا يخرجون كل صباح يترقبونه ، روى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عُوَيْمر ، قال : « حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله من مكة ، وتوكّفنا (توقعنا) قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرَّتنا ننتظر رسول الله ﷺ ، فوالله مانبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإن لم نجد ظلا دخلنا وذلك فى أيام حارة » .

ووصل رسول الله إلى قُباء ، فقضى بها أربعة أيام ، وكان أول عمل قام به أن أسس بها مسجداً كان أول مسجد فى الإسلام ، وصفه الله تعالى بأنه المسجد الذى أسس على التقوى ، وإقامة هذا المسجد كان توجيهاً عمليًّا من الرسول إلى المسلمين ، ليكون أول مايعنون به هو المسجد ، الذى يربطهم بالله ربطاً وثيقاً ، ويجمعهم على التقوى ووحدة العقيدة ، ويوثق صلتهم بالدين حين يؤدون فيه الصلاة ، ولقد شارك الرسول فى البناء ، فكان يحمل الحجارة حتى يبدو عليه الجهد ، فيرغب أصحابه أن يكفوه فيرفض ، وظل يشاركهم العمل ويسهم فى إقامة أول بيت لله سبحانه يُعبد فيه وتُقام فيه شعائر دينية ، قالت الشموس بنت

النعمان : « نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم فنزل وأسس المسجد ، فرأيته يأخذ الحجر والصخرة حتى يصهره الحجر ، فيأتى الرجل من أصحابه فيقول : يارسول الله بأبى أنت وأمى ، تعطينى أكفك ، فيقول له : لا خذ مثله ، حتى أسسه » .

وفى قباء التقى علىّ بن أبى طالب برسول الله بعد أن مكث فى مكة ثلاث ليال يؤدىّ فيها الودائع التى كانت للناس عند رسول الله ، عن عبد الله بن أبى رافع عن علىّ قال : « لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة فى الهجرة أمرنى أن أقيم بعده حتى أؤدى ودائع كانت عنده للناس ، ولذا كان يسمى الأمين ، فأقمت ثلاثاً فكنت أظهر ماتغيبت يوماً واحداً ، ثم خرجت فجعلت أتتبع طريق رسول الله ﷺ ، حتى قدمت بنى عمرو بن عوف ، ورسول الله ﷺ مقيم ، فنزلت على كلثوم بن الهدم » .

وتحرك الركب مرة ثانية إلى يثرب التى كانت تعيش أفراحاً متصلة وقد أشرقت بالبهجة والسرور ، ولبس الناس أحسن ملابسهم ، ووقفت النسوة على سطوح المنازل يستشرفن رسول الله ، وأخذت الإماء والجوارى ينشدن ويغنين ويضربن بالدفوف ، والصبية يهللون ويصيحون فى سعادة غامرة .

كان أهل المدينة يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد يرقبون بالشوق الكبير والحب العظيم مقدم الرسول الحبيب ، وذات صباح صعد رجل يهودى على أكمة عالية ، فإذا به يرى رسول الله وصاحبه من خلال الأفق البعيد ، يقتربون رويداً رويداً ، فصاح اليهودى بأعلى صوته : « يابنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء » .

وأشرق نوره عليه الصلاة والسلام ، فهلل الناس وكبّروا وسرى السرور إلى القلوب ، قال البراء : « مارأيت أهل المدينة فرحين بشىء فرحهم برسول الله ﷺ » ، وعن أنس بن مالك قال : « لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء فيها كل شىء » .

كان رسول الله حين خرج من مكة قد ناشد ربه قائلا : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البقاع إلىّ فأسكنى أحب البقاع إليك » .

واستجاب الله ، وأسكن رسوله ﷺ يثرب ، وخرج جميع أهلها يستقبلونه فرحين مستبشرين وهم ينشدون أغنيتهم الحلوة الجميلة الخالدة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داَع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وفى يثرب . ، المدينة المنورة . . كان المستقر وكانت النصرة .

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٨١/٣٤٧١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٧٣٤٩-٢٢- X

١/٨٠/٣١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



